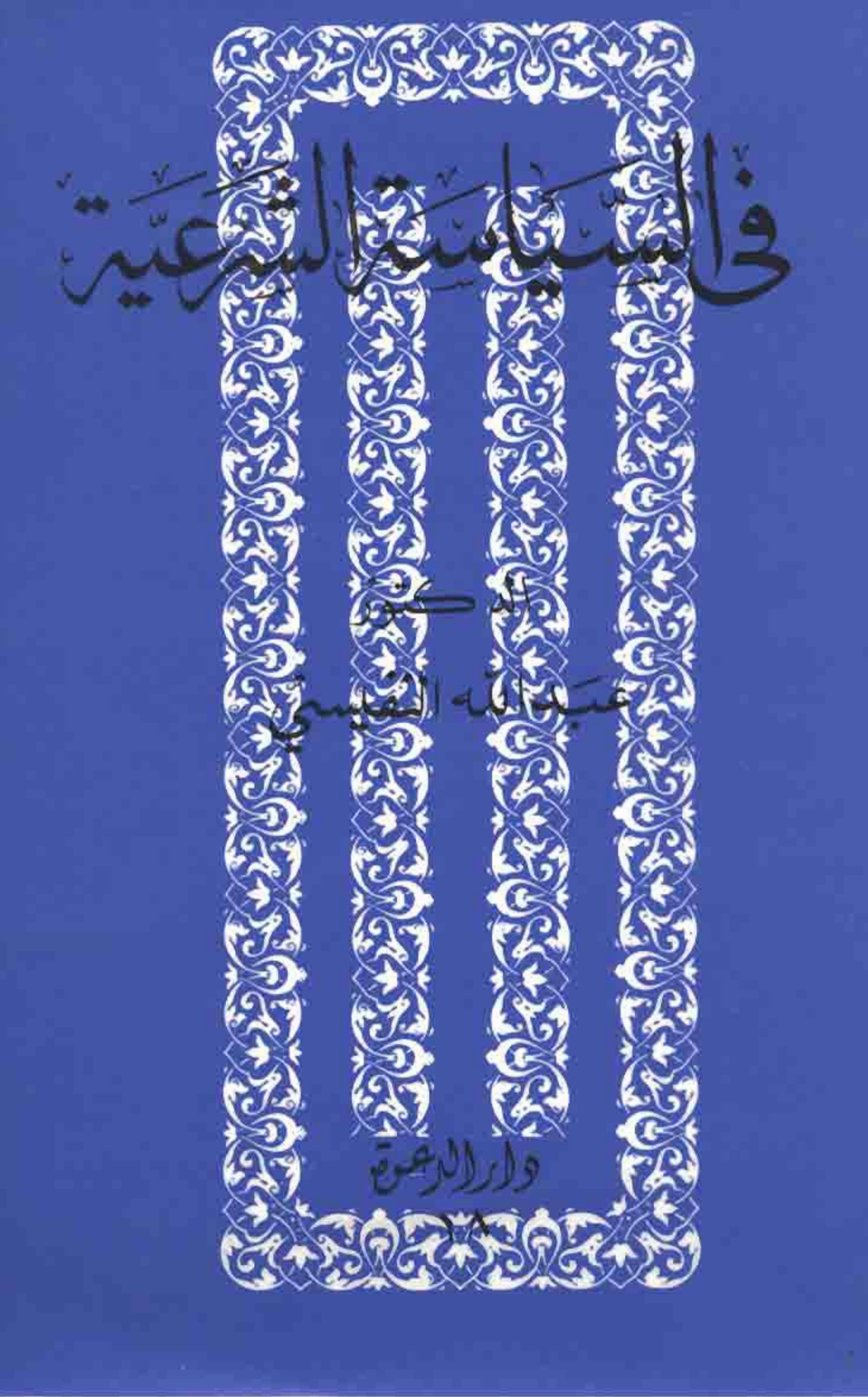


في السياسة الشرعية

الدكتور
عبد الله النفيسي

دار الدعوة
٦٨

في السياسة الشرعية

الدكتور

عبدالله النفيسي

دار الدعوة

١٨

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ

١٩٨٤ م

دار الدعوة - الكويت



الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ

١٩٨٤ م

دار الدعوة - الكويت




بسم الله الرحمن الرحيم

● في شتاء ١٩٦٢ كان مؤلف هذا الكتاب ـــ الاخ د . عبد الله فهد النفيسي ـــ يُعد نفسه لدراسة الطب في مدينة تقع شمال الجزر البريطانية وهي مانشستر . كان يدرس هناك علوم الأحياء والكيمياء والرياضيات البحتة ويطمح لكي يصير طبيبا . وفي يوم من الأيام كان يتجول في شارع من شوارع مانشستر وتوقف عند دكانة نبيع الكتب المستعملة الرخيصة وأخذ يحدق في أغلفة الكتب المعروضة في نافذة العرض وكان رذاذ المطر منعشا ولذيذا . شد انتباهه عنوان غريب لكتيِّب صغير الحجم : « لماذا أنا لست بمسيحي ؟ » للفيلسوف برتراند رسل « WHY I AM NOT A CHRISTIAN » BY BERTRAND RUSSELL دلف صاحبنا بغريزة انقيادية من باب المكتبة المزدحمة بالطلبة الأفارقة والآسيويين وأخذ يتصفَّح الكتيِّب . أعجِبَ به ، رغب في اقتنائه ، فنقد السيدة صاحبة المكتبة بثمنه وقفل راجعا إلى غرفته في ذلك المنزل الرمادي الواقع في شارع « وارويك » في حي « اولدترتفولد » التهم الكتيِّب التهاماً ، قرأه أكثر من مرَّة ، أثار في نفسه كثيراً من الأسئلة القلقة . وأخذ صاحبنا يسأل نفسه : إذا كان « رسل »

يعرف الأسباب التي تجعله يكفر بالمسيحية، فهل أنا أعرف الأسباب التي جعلتني مسلماً؟ لماذا أنا مسلم؟.

دفعه ذلك القلق إلى الاستفسار عن جامع مانشستر أو المصلّى الذي يؤدي فيه المسلمون في المدينة صلواتهم. أعانه بعض الطلبة العراقيين للوصول إلى هناك.

دخل المصلّى دون وضوء، جلس القرفصاء، وأسند ظهره للجدار البارد، وأخذ يتأمل بالمصلين: شباب في عمر الزهور، عليهم ثياب رثة، وتعب الغربة، لكن في أعينهم ما لا يراه في أعين الناس خارج المصلى: اليقين. بعضهم يتحلّق حول شاب تونسي أو مغربي — لا يذكر — ويتعلمون كيف يجيدون قراءة وتلاوة القرآن. أيضا بغريزة انقيادية انضم إلى الحلقة وناوله أحدهم مصحفا. طلب منه نقيب الحلقة أن يقرأ: «ألم نشرح لك صدرك؟» وإذا بها تفتح كل المغاليق.

● تعلق قلب صاحبنا بذلك المصلّى وجدرانه الباردة وسجّاده العتيق والشباب ذوي الملابس الرثة والسحنة الشرقية. كان يشعر بدفء المصحف في برد تلك المدينة القارص. ذات يوم قرّر أن يترك مشروعه في دراسة الطب ويعود للكويت ليدرس الإسلام والعلوم الشرعية. جمع ملابسه وأشياءه وكتبه وضعها في الحقيبة واستقل القطار إلى لندن وذهب إلى مكتب الملحق الثقافي آنذاك في «بيكر ستريت» وطلب منه أن يزوّده بتذكرة طائرة للعودة إلى الكويت. حاول الملحق الثقافي أن يثنيه عن قراره في العودة، لكن صاحبنا قد

قرَّر نهائيا أمره. استقل الطائرة ــ بعد أيام ــ قافلا إلى الكويت. هناك أفادته وزارة التربية بأنه قد تم فصله من البعثة نظرا لتركه مقر البعثة ونيته لتغيير التخصص تغييراً أساسيا (من الطب إلى العلوم الشرعية). قدَّم أوراقه للأزهر فلم يقبله الأزهر. ذهب إلى دمشق وقدَّم أوراقه لكلية الشريعة فلم تقبله كلية الشريعة. قالوا له أنه من الأفضل الانضمام إلى المعهد الديني للتزود بأساسيات العلوم الشرعية والتي يفتقر إليها. زودُّوه بالكتب واصطدم بجدار الرسميات والمناهج والادارة الروتينية ففقد اهتمامه بالمؤسسات الدينية القائمة وانكبَّ على القراءة الاسلامية الحرَّة. نصحه بعض الأصدقاء بدراسة السياسة وخدمة الاسلام من خلال ذلك.

انضم إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لهذا الغرض ١٩٦٣ــ ١٩٦٧. ونشط هناك إسلاميا فكتب في الجرائد والمجلات الإسلامية، منها « الشهاب » في بيروت، و« حضارة الإسلام » في دمشق، و« المسلمون » التي كان يصدرها المركز الإسلامي في جنيف. وأصدر هو نفسه نشرة طلابية إسلامية شعارها « الاسلام عقيدة ومنهج حياة » اسمها « البلاغ ». وحصل على بكالوريوس العلوم السياسية في عام ١٩٦٧ ومنها ذهب إلى انجلترة للدراسات العليا في جامعة كمبردج وحصل على الدكتوراة عام ١٩٧٢. وكان خلال إقامته في انجلترة على صلة وثيقة بالجمعيات الطلابية الاسلامية وبمجلة « الغرباء » وكان يكتب المقالات الإسلامية بإسم مستعار اختاره « فتى الخليج ».

• فمجموعة هذه المقالات حول السياسة الشرعية والتي نشرها صاحبنا في مجلة « المجتمع » الاسلامية الأسبوعية التي تصدر في الكويت هي جزء من مسيرة بدأها عام ١٩٦٢ في برد مانشستر القارص يوم كان طالبا يحمل مشروعاً لدراسة الطب. « يهدي الله لنوره من يشاء » النور / ٣٥ .

نسأل الله أن ينفع بها صاحبها عند لقاء الله ، وينفع بها القارئ وعموم المسلمين ، إنه على كل شيء قدير .

الناشر

أسئلة جوهرية حول الدعوة الإسلامية

الدعوة لإقامة الدعوة الإسلامية:

من يراجع نتاج المطابع الإسلامية من كتب وكراسات ومجلات وجرائد يلاحظ دعوة مكرورة لإقامة الدولة الإسلامية التي تلتزم بمنهج الإسلام. وتكرار هذه الدعوة إن دلَّ على شيء فإنما يدل على قناعة تامة بعدم وجود هذه الدولة على صعيد الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، لا نجد ــ بالرغم من تكرار الدعوة هذه والوعي لضرورتها ــ وعيا بتفاصيل مضمونها السياسي. بعبارة أوضح ثمة وعي بضرورة قيام الدولة الإسلامية المنشودة مع غياب الوعي لتراكيب تلك الدولة وأهدافها السياسية ومسوغاتها الشرعية والعقائدية وقدراتها الحركية والتنظيمية والتعبوية لمواجهة التحديات السياسية في هذا العصر. وتأتي هذه الصفحة ــ أخي القارئ ــ لتسد أو لتحاول أن تسد هذه الثغرة في الوعي الإسلامي. وظيفة هذه الصفحة إذن هي طرح التصور السياسي الشرعي للدولة الإسلامية التي نبغي وللكيان الإسلامي السياسي الذي ننشد إقامته فوق الأرض مزودا بكافة الوسائل المادية والتنفيذية التي لدول هذا العصر.

طبيعة السلطة السياسية التي نادى بها الإسلام:

نحن ننادي حقا بضرورة قيام الدولة الإسلامية، لكن أي نوع من الدول هي الدولة الإسلامية؟ هل يرأسها ملك أم خليفة؟ هل هي دولة طبقة معينة من الناس أم دولة منهج وعقيدة تتجاوز الطبقات والعائلات؟ وكيف تصرف الأموال العامة في الدولة الإسلامية؟ وما موقف القرآن والسنة من هذا الأمر؟ والحاكمية فيها لمن؟ وما هي مرتكزاتها؟ وهل الدولة الإسلامية ـــ في المحصلة النهائية ـــ تحقق مصلحة فردية أو طبقية أم مصلحة جماعية؟ وإذا تعارضت المصالح الخاصة مع المصالح العامة في الدولة الإسلامية، فأيهما أولى بالإهدار شرعا؟ وما مراجعنا في كل ذلك، وما مدى التزام الدولة بأرزاق الناس؟ وما مدى التزامها بتوفير الحاجات الضرورية للمواطن من طعام وملبس ومسكن وضمان اجتماعي؟ وما موقفها من احتكار الأقوات وحرية التجارة وتسعير البضائع؟ وهل الحدود والعقوبات المنصوص عليها شرعا مطلوب تنفيذها مهما كانت الظروف المحيطة بالمجتمع أم أن تطبيقها مرهون بتوفير بيئة اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة نادى بها الإسلام؟ وما هي الأهداف العامة للشريعة الإسلامية في الحكم والمجتمع؟ وهل لرئيس الدولة مخصصات؟ وهل هذه المخصصات لشخص الخليفة أم لعشيرة الخليفة أيضا؟ ومن يحدد هذه المخصصات؟ كل هذه الأسئلة وغيرها لا بد من التعرض لها وذلك للتعرف على طبيعة السلطة السياسية التي نادى الإسلام وننادي اليوم بضرورة قيامها.

هل يوجب الإسلام قيام سلطة سياسية خاصة به؟

وجوب قيام سلطة سياسية خاصة بالإسلام:

هل يوجب الإسلام قيام سلطة سياسية خاصة به، تلتزم به سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا؟

ـــ نعم يوجب الإسلام قيام سلطة سياسية خاصة به، تلتزم به سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا ودلائلنا على ذلك تأتي من خلال استقراء النصوص الإسلامية وعلى ثلاثة مستويات:

الأدلة على ذلك:

١ ـــ ما ورد في القرآن حول وجوب قيام سلطة سياسية إسلامية.

٢ ـــ ما أقرته السنة النبوية الشريفة في هذا المضمار وسيرة المصطفى ﷺ في مجال تنظيم الدولة والجماعة.

٣ ـــ ما ذكرته المصادر الإسلامية المعتمدة لتاريخنا الإسلامي.

المستوى الأول من الأدلة (القرآن الكريم):

وسوف نتناول بالمعالجة المختصرة المستوى الأول ـــ أي ـــ ما ورد في القرآن حول وجوب قيام سلطة سياسية إسلامية ونرجئ بحث

المستويات الأخرى إلى ما بعد بإذن الله .

نقول وبالله التوفيق : ان القرآن يقرر أن الله هو : مالك الملك ، المهيمن ، الواحد ، القاهر ، الخالق ، الكبير ، السلام ، المؤمن ، العزيز ، الجبار . وحيث أن القرآن يؤكد في العديد من آياته ملكية الله لهذا الكون : « له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى »[١] ، « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض »[٢] ، « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا »[٣] ، « أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ٭ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ٭ على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ٭ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون ٭ أفرأيتم ما تحرثون ٭ ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٭ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكّهون ٭ إنّا لمُغْرَمُونَ ٭ بل نحن محرومون ٭ أفرأيتم الماء الذي تشربون ٭ ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٭ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٭ أفرأيتم النار التي تورون ٭ ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ٭ »[٤] .

---

(١) سورة طه الآية ٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٩ .

(٤) سورة الواقعة الآية ٥٨ــ٧٢ .

الحاكمية في الكون لله:

لذلك يمضي السياق القرآني ليؤكد أن الحاكمية في هذا الكون هي لله وهذا واضح من خلال العديد من الآيات مثل: « إن الحكم إلا لله »[٥]، « لله الأمر من قبل ومن بعد »[٦]، « والله يحكم لا معقب لحكمه »[٧]، « أليس الله بأحكم الحاكمين »[٨].

القرآن المصدر الرئيسي للتشريع

وتتجسد هذه الحاكمية في تطبيق ما في القرآن من أحكام واعتباره لا مصدرا من مصادر التشريع بل المصدر الرئيسي للتشريع: « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »[٩]، « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »[١٠]، « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »[١١].

حكم من لم يحكم بما أنزل الله:

---

(٥) سورة الأنعام الآية ٥٧ .

(٦) سورة الروم الآية ٤ .

(٧) سورة الرعد الآية ٤١ .

(٨) سورة التين الآية ٨ .

(٩) سورة الأعراف الآية ٣ .

(١٠) سورة الجاثية الآية ١٨ .

(١١) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .

بعد كل هذا ينفي القرآن صفة الإيمان والعدل والاستقامة عن الذين يرفضون أو يعطلون تنفيذ أحكامه وتشريعاته سواء كانت على مستوى التشريع السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي: « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(١٢)، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »(١٣)، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »(١٤)، « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »(١٥).

ضرورة قيام سلطة سياسية:

لقد اشتمل القرآن على تشريعات عديدة سواء في موضوع الحكم (الخلافة) أو حدود الطاعة أو الشورى أو صفات أولي الأمر أو العقوبات أو الزكاة أو العبادات وطالبنا بتنفيذها على الصعيدين الفردي والجماعي، بما يتطلب — بالضرورة — تسليم القيادة لسلطة سياسية وذلك لتنظيم الجهد الفردي والجماعي لتنفيذ الشريعة على صعيد الواقع. إذن واضح أن القرآن يوجب قيام سلطة سياسية إسلامية بالمعنى العقائدي للكلمة.

---

(١٢) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(١٣) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(١٤) سورة المائدة الآية ٤٧ .

(١٥) سورة المائدة الآية ٥٠ .

محمد ﷺ ممثل حاكمية الله في هذا الكون

طاعة الرسول ﷺ :

إذا كانت الحاكمية في هذا الكون هي لله — كما بينّا — فإن محمداً ﷺ هو ممثل هذه الحاكمية. لذلك فإن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله. ولذلك نجد القرآن يؤكد هذه النقطة في كثير من الآيات: « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[١٦]، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[١٧]، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم »[١٨]، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »[١٩].

أهمية وجود السلطة السياسية المتمثلة بالشريعة الإسلامية:

---

(١٦) سورة النساء الآية ٨٠ .

(١٧) سورة الحشر الآية ٧ .

(١٨) سورة النساء الآية ٦٥ .

(١٩) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

ولا يتحقق التمثيل الكامل لهذه الحاكمية إلا من خلال وضع الشريعة نصا وروحا موضع التنفيذ. وحيث أن الشريعة تشتمل على كافة مجالات التشريع (الدماء والفروج والأموال) من دقائق شئون الفرد إلى دقائق شئون الجماعة؛ كان لا بد لذلك أن تكون اليد العليا لأصحابها في شكل سلطة سياسية مادية ملموسة ومحسوسة ومؤثرة ومنفذة. لذلك قاتل الرسول ﷺ وغزا في سبع وعشرين وغزوة: غزوة ودان، غزوة بواط، العشيرة، بدر الأولى، بدر الكبرى، بني سليم، السويق، غطفان، بحران، أحد، حمراء الأسد، بني النضير، ذات الرقاع، بدر الآخرة، دومة الجندل، ذي قرد، بني المصطلق، الخندق، بني قريظة، بني لحيان، الحديبية، خيبر، الفتح، حنين، الطائف وأخيراً تبوك[٢٠].

مهمة الرسول ﷺ:

ولو كان الرسول ﷺ فقط داعية للإصلاح — ولا شك أن مهمته تشتمل فيما تشتمل — وللأخلاق الفردية والمناقب المثالية لما كانت هناك ضرورة لكل هذه الدماء ولكل هؤلاء الشهداء. هل من المعقول أن يقوم بذلك كله فقط لكي يكون الناس أكثر صدقا وأبعد عن الخمر والميسر وكفى؟ إن مهمة محمد ﷺ كانت ولا تزال — في نظر أتباعه — أكبر وأخطر وأعظم من

---

(٢٠) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ٤ ص ١٠٢٧.

كل التصورات العادية المبثوثة في أذهان الناس، كانت مهمته الأساسية ــ لا الإصطلاح مع الأوضاع في الجزيرة العربية ولا حتى تعليقها ــ بل قلب الأوضاع في جميع الأرض من خلال سلطة سياسية مادية تقوم بعملية التحرير للانسان على مستوى العالم. تقيم العدل في حياة البشر (مسلمين وغير مسلمين) وتقضي على الظلم والجور وأئمة الظلم والجور: « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »[٢١]. يقول الرازي في « مفاتيح الغيب » مفسراً هذه الآية بأن المراد بالحديد هنا القوة إذ لو عصى الناس وتمردوا على الشريعة ــ سواء كانوا حكاما أو محكومين ــ لزم استخدام السيف في وجههم.

أهمية الدستور الذي وضعه الرسول ﷺ:

ثم ما كاد الرسول ﷺ أن يستقر في المدينة وما كاد العام الأول للهجرة ينتهي حتى وضع دستورا مؤقتا لتنظيم الحياة العامة هناك[٢٢]. ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية السياسية وعلى علم بأحوال الناس وفهم لظروفهم وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة أو دستور المدينة.

---

(٢١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة د. محمد حميد الله ص ٣٩.

أما أطراف هذه الصحيفة فثلاثة: المهاجرون، والأنصار، ويهود يثرب. وغني عن البيان أنه لا نستطيع ــ كمتخصصين في علم السياسة الوضعية ــ أن نجد غير هذه الدولة الإسلامية في التاريخ قد قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب مما يدلل على رسوخ الفكر السياسي لدى منشئيها وعلى رأسهم المصطفى ﷺ. لقد حددت الصحيفة المذكورة المسئولية الشخصية والبعد عن الثارات القبلية ووجوب الخضوع للسلطة الجديدة المتمثلة بالرسول ﷺ وأجهزته للتصرف. واعتبرت الذين يسكنون المدينة أمة واحدة من دون الناس. وحددت موقف الرسول من شئون الحرب والسلم وأن حرب الأفراد وسلمهم لا تؤقته القبيلة وإنما يدخل ضمن اختصاصات الدولة الجديدة وقيادتها المركزية.

نادى الرسول في هذه الصحيفة بضرورة معاونة الدولة الإسلامية الوليدة في أقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو إيوائه. كذلك حدد الرسول ﷺ في الصحيفة العلاقة بين الدولة الإسلامية وقطاع اليهود الذين لا يؤمنون بدعوتها. وأسس في الجزيرة العربية ــ ولأول مرة في تاريخها ــ سلطة مركزية ترجع إليها الأمة.

نسأل ختاماً: إذا لم يكن هذا من قبيل ممارسة الحكم، فما هو الحكم إذن؟.

الفقهاء .... والدولة الإسلامية

حكم قيام سلطة سياسية إسلامية:

يؤكد الفقهاء وجوب قيام سلطة سياسية إسلامية والتي لا يقوم الإسلام كدين إلا بها. نورد بعض أقوالهم.

أقوال الفقهاء مبسّطة:

١ ـ يقول ابن تيمية في كتابه: « السياسة الشرعية »: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين. بل لا يقام الدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بإجماع الحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهذا الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم »[٢٣]. وجاء في مسند أحمد أن النبي ﷺ قال: « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة في الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم »[٢٤]، فأوجب ﷺ تأمير الواحد

---

(٢٣) رواه أبو داود في سننه ج ٣ ص ٢٦٠٨، وسكت عنه أبو داود ط الأولى ١٩٧١م.

(٢٤) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٧ نشر المكتب الإسلامي.

في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع)[٢٥] .

٢ ـــ ويقول الماوردي في كتابه : « الأحكام السلطانية » : (عقد الإمامة لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع)[٢٦] .

٣ ـــ ويقول ابن قيم الجوزية في كتابه « الطرق الحُكْمِيَّة » : (إن الأحكام الشرعية لها طرق شرعية ـــ لتنفيذها ـــ ولا تتم مصلحة الأمة إلا بها ولا تتوقف على مدع ومدعى عليه بل لو توقفت على ذلك فسدت مصالح الأمة واختل النظام يحكم فيها متولي ذلك بالأمارات والعلاقات الظاهرة والقرائن البينية . ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن فإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور)[٢٧] .

٤ ـــ يقول ابن خلدون في كتابه « المقدمة » : (إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين له وأصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ، ولم يترك الناس فوضى في عصر من العصور واستقر ذلك

---

(٢٥) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٣٨ ، دار الكتب بيروت ١٩٦٦م .

(٢٦) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥ ـــ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨ م .

(٢٧) الطرق الحُكْمِيَّة لابن القيم الجوزية ص ٣١١ ـــ المؤسسة العربية ، القاهرة ١٩٦١ م .

إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام)[٢٨].

٥ ــ ويقول أبو يعلى الفراء في كتابه « الأحكام السلطانية »: (نصبة الإمام واجبة وقد قال أحمد رضي الله عنه في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: « الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس »)[٢٩].

٦ ــ ويقول ابن حزم في كتابه « الفصل بين الملل والنحل »: (اتفق جميع أهل السنة على وجوب الإمامة وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة)[٣٠].

٧ ــ ويقول الشوكاني في « نيل الأوطار »: (فعند العترة وأكثر المعتزلة والأشعرية تجب شرعا)[٣١].

هكذا إذن نجد أن الأدلة من القرآن والسنة وما ذكره فقهاء الإسلام كلها تصب في مجرى واحد وهو أن الإسلام يوجب قيام سلطة سياسية تدين به ويتكامل فيها الولاء المطلق لنظامه وقيمه وشريعته وأحكامه.

---

(٢٨) المقدمة لابن خلدون ص ١٦٧ القاهرة.

(٢٩) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص ١٩ ــ القاهرة ١٩٦١ م.

(٣٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٤ ص ٨٧.

(٣١) نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٦٥.

دولة الرسول ﷺ من خلال مقاييس العلوم السياسية المعاصرة

شبهة حول قيام دولة الرسول ﷺ:

بالرغم من توفر الدلائل الكثيرة على وجوب قيام سلطة سياسية مستقلة وملتزمة التزاما عقائديا بالإسلام وبتشريعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري؛ وبالرغم من الدلائل التاريخية الناصعة المتمثلة بدولة الرسول ﷺ التي أقامها في المدينة المنورة في بادىء الأمر ثم اتسعت لتشمل الجزيرة العربية، نقول بالرغم من ذلك تستمر حملات التشكيك على كل المستويات لزعزعة إيمان الدعاة بالقضية المقدسة ألا وهي قضية العمل لإقامة دولة الإسلام في العصر الحاضر. وتحاول هذه الحملات أن تتترس بما يسمى اليوم بالدراسات الأكاديمية الصادرة من الجامعات المتأمركة والموالية للغرب، وتقول بعض هذه الدراسات أن الرسول ﷺ لم يقم دولة بقدر ما أقام سلطة دينية محضة سرعان ما تلاشت بعد وفاته وتحولت إلى سلطة سياسية عربية تتقاذفها الأهواء والقبليات. ونحن لن ندخل هنا في جدل لا جدوى منه مع هؤلاء المغرضين بل كل ما نريد أن

نثبته هنا أن الرسول ﷺ أقام في المدينة المنورة سلطة سياسية تعتبر بكل المقاييس العصرية دولة بكل معنى الكلمة.

العناصر الرئيسية للدولة:

• لقد أجمع خبراء علم السياسة العصريون من غربيين وشرقيين ومن رأسماليين وشيوعيين ومستقلين أن العناصر الرئيسية التي تتكون منها الدولة هي:

١ ـ السكان: أي مجموعة كبيرة من الناس.

٢ ـ الأرض: أي مساحة معينة من الأرض التي يعيش عليها السكان.

٣ ـ الحكومة: أي منظمة سياسية تفصح عن إرادة أو قانون الدولة وتقوم بأعمال الإدارة العامة.

٤ ـ السيادة: أي سيطرة الدولة على جميع الأفراد والمنظمات التابعة لها واستقلالها عن أي سيطرة خارجية.

• بخصوص السكان وعددهم يقول ريموند كيتيل في مبحثه «العلوم السياسية»: (لا يوجد أي تحديد دقيق لعدد الأشخاص الذين يكونون الدولة، والمعروف عن السكان هو أنهم يجب أن يكونوا

من الكثرة بحيث يتمكنون من تنظيم أعمال الدولة وبحيث يكون التمييز بين الشئون العامة والشئون الخاصة وبين الحاكم والمحكوم.. ويختلف عدد السكان في الدولة في العصر الحديث من

بضعة آلاف إلى عدة ملايين)[٣٢].

بخصوص الأرض يقول المؤلف نفسه : (تختلف النظرية الخاصة بسعة الأرض التابعة للدولة اختلافا كبيرا. فبالنسبة للأغريق كانت الحدود الضيقة لمدينة محصنة تعتبر حدودا معقولة مقبولة .. أما فكرة الدولة الحديثة فهي تؤكد نواحي معينة كالحدود الطبيعية والنواحي الجغرافية .. وقد أكد عدد كبير من الكتاب على أن الدولة الصغيرة هي أقوى نسبيا من الدولة الكبيرة)[٣٣].

انطباق عناصر الدولة على دولة الرسول ﷺ :

نلاحظ ــ لو طبقنا العناصر الأربعة المكونة للدولة كما يعرفها خبراء علم السياسة العصريين ــ أنها تنطبق انطباقا تاما على دولة الرسول ﷺ في المدينة. كان هناك السكان الذين يمثلون الجماعة الإسلامية الأولى القاطنة في المدينة وما حولها في الريف والقرى وهؤلاء السكان يفوق عددهم سكان بعض الدول العصرية التي دخلت في منظمة الأمم المتحدة. وكان هؤلاء السكان يسيطرون على مساحة كبيرة من الجزيرة العربية وهذه المساحة أكبر بكثير من مساحة بعض الدول العربية وغير العربية التي حصلت على عضوية الأمم المتحدة. وكان هؤلاء السكان يدينون بالولاء لسلطة تدير شئونهم كلها

---

(٣٢) العلوم السياسية، ريموند كتيل، ترجمة د. فاضل زكي ج ١ ص ٢٧ مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٣ م.

(٣٣) المرجع السابق.

(سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية) وعلى رأسها الرسول ﷺ. ومن خلال هذه السلطة استطاعت حكومة الرسول تحقيق إرادتها وإدارة أعمالها فقضت في مختلف الشئون المالية والعائلية والجنائية وأقامت الحدود وعينت الولاة وقواد السرايا والدعاة إلى الإسلام وجباة الصدقات وقاتلت الأعداء وقبضت الفيء وخمس الغنائم ووزعتها على الفئات التي حددها القرآن (الدستور) إلى غير ذلك من شئون الحكم. وكانت هذه السلطة الإسلامية التي تمثل الجماعة الإسلامية الأولى مستقلة تماما عن كل القوى السياسية الخارجية. أكثر من ذلك فإن هذه الدولة الإسلامية الصغيرة كانت تهدد استقلال أكثر من قوة سياسية عالمية محيطة بها ونقصد بالطبع فارس وبيزنطة. نزيد فنقول: إن هذه الدولة الإسلامية الصغيرة قضت على الكسروية في فارس والقيصرية في بيزنطة لأن الكسروية والقيصرية كانتا تمثلان قوى مادية مضادة وكان لابد لمواجهتهما ودحرهما وإبعادهما تماما عن خط المسيرة الإسلامية أن يتزود الإسلام بقوته المادية المتكافئة والمضادة لهما.

مشروعية الجهاد:

من أجل هذا شرع الله « الجهاد » وكانت نتيجته العسكرية واضحة تماما لكل من يقرأ التاريخ، فقد وحد المسلمون — من خلال الجهاد — الجزيرة العربية وحل الإسلام محل الامبراطورية

الفارسية في فارس وحل الإسلام محل الامبراطورية البيزنطية في أكثر أقاليمها. وغني عن القول أن السلطة الدينية ليست مؤهلة للقيام بكل ذلك!.

المشاركة السياسية الشعبية في الدولة الإسلامية

إذا كان قيام السلطة السياسية الملتزمة عقائديا بالإسلام أمرا واجبا شرعا وعقلا وفطرة فأي نوع من الدول هي الدولة الإسلامية؟ وفي هذ السياق نطرح سؤالا واحدا ونكتفي بالإجابة عليه هنا، والسؤال هو: هل في الدولة الإسلامية الملتزمة عقائديا ومنهجيا بالقرآن والسنة مجال للمشاركة الشعبية السياسية؟.

حق المسلمين في محاسبة الحكام والإثم في تركه:

نقول وبالله التوفيق: إن الإسلام وقف موقفا حاسما من هذه القضية ـ قضية المشاركة الشعبية السياسية ـ ولصالحها، فللمسلمين الحق في محاسبة الحكام. والأمة في الإسلام لها القوامة على الحاكم والزمها الإسلام بالإنكار عليه إذا قصَّر في مسئولياته أو أساء في استعمال سلطته. فقد روى مسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ

ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع .. » الخ الحديث. أي من عرف المنكر فليغيره ومن لم يقدر على تغييره فأنكر ذلك في قلبه فقد سلم. فالمسلمون يجب عليهم أن يحاسبوا الحاكم، ويكونون آثمين إذا رضوا بأعمال الحاكم التي تنكر وتابعوه عليها. ومن أطاع العلماء والأمراء والحكام في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله وقد أشرك وسيحشر مع المشركين حتى لو كان هذا الحاكم كائنا من كان. قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر[٣٥].

شروط الخلافة:

ومن أكبر الدلائل على وقوف الإسلام لصالح المشاركة الشعبية في اتخاذ القرار السياسي أن جعل منصب رئيس الدولة (الخليفة) عقد مراضاة واختيار لاينبغي أن يدخله أي إكراه أو إجبار. ولايجوز أخذ البيعة من الناس بالإجبار أو الإكراه. ولاتنعقد الخلافة شرعاً لأي شخص إلا بمبايعة عموم المسلمين له وهذه البيعة العامة هي التي تجعل الخلافة تنعقد ولايكون رئيس الدولة في الإسلام رئيساً لها إلا برضى واختيار المسلمين. وحتى لو بويع وأصبح خليفة فهو مقيد

---

(٣٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه ج ٣ ص ١٤٨٠ ح ١٨٥٤ ط عبد الباقي.

(٣٥) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٨٢ نشر مكتبة الرياض الحديثة.

بعقد الوكالة التي أوكلها إياه المسلمون. يقول ابن قدامة في المغني: « من اتفق المسلمون على إمامته وبيعته ثبتت إمامته ووجبت معونته »[٣٦] ويقول الإمام ابن تيمية في منهاج السنة: « الإمامة ــ أي رئاسة الدولة والخلافة ــ تثبت بمبايعة الناس لا بعهد السابق له »[٣٧].

مركز رئيس الدولة:

وبناء على ذلك يتضح بجلاء المركز القانوني لرئيس الدولة في الإسلام. فهو مركز النائب والوكيل، الوكيل عن الأمة التي انتخبته نائباً عنها ليدير شئونها وفق منهج الشرع الإسلامي ولتطبيق سائر أحكامه. وإذا كان مركز رئيس الدولة في الإسلام هو مركز الوكيل فمن البديهي أنه يستمد سلطاته من موكله، أي من الأمة، فالأمة في الإسلام هي مصدر السلطات ورئيس الدولة يباشر هذه السلطات باسم الأمة وبهذا الاعتبار فقط دون حق عضوي فيه ثابت ولايتغير أو يتحول أو ينقل. وحيث ان علاقة الأمة في الإسلام برئيس الدولة علاقة وكالة فهي التي اختارته، فمن حق الموكل في الشريعة الإسلامية أن يراقب وكيله ليطمئن على حسن قيامه فيما وكله فيه. ومن حق الأمة اذن مراقبة الحاكم لتقويمه إذا انحرف عن المنهج القويم وحاول ان يتسلط أو يتجبر. وليست مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي

---

(٣٦) المغني لابن قدامة المقدسي ج ٨ ص ١٠٦.

(٣٧) منهاج السنة لابن تيمية ج ١ ص ١٤٢.

عن المنكر بمؤسسة عبادية أو شعائرية فقط بل هي أساساً مؤسسة سياسية ـ اجتماعية. جاء عن النبي ﷺ في حديث رواه أبو داود: « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق اطرا ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »[٣٨]. من هنا يتبين لنا أن مقاومة الظالم والطاغية يعتبرها الإسلام عبادة وقربة من الله. ومن هنا يتبين لنا أنه لابقاء لحاكم مستبد ظالم متسلط في دولة تقام على أساس الإسلام.

سبب وجوب الشورى:

ومن هنا ولهذا السبب وجبت الشورى في دولة الإسلام كمؤسسة سياسية تصحيحية (وسوف نناقش الوجوب الشرعي للشورى إن شاء الله). بل يقرر الفقهاء أنه نظراً لثبوت حق الأمة في المشاورة فإن ترك هذا الحق من جانب رئيس الدولة موجب العزلة في الإسلام. فقد جاء في تفسير القرطبي: « قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لايستشر أهل العلم والدين فعزله واجب »[٣٩] نعم عزله واجب لأن من يملك التعيين

---

(٣٨) رواه أبو داود ج ٤ ص ٥٠٨و ٥٠٩ ح ٤٣٣٦و ٤٣٣٧ وأخرجه ابن ماجه مرسلاً ج ٢ ص ١٣٢٧ ح ٤٠٠٦ قال المنذري: منقطع.

(٣٩) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٤٩.

والاختيار يملك العزل والأمة هي التي عينته واختارته ــ أو هكذا يجب أن يكون ــ وهي التي تملك تنحيته. يقول ابن حزم في الفصل في الملل والنحل: « فهو الإمام الواجب طاعته ماقادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فان زاغ عن شيء منها منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولي غيره »[٤٠].

الشعبية السياسية ويحث على رقابة الحاكم ويحرض المسلمين على تقويمه وردعه وكبحه، أو كما قال المصطفى ﷺ: « ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »[٤١].

---

(٤٠) الفصل بين الملل والنحل لابن حزم ص ٤٣.

(٤١) الحديث تقدم تخريجه بحاشية رقم ٣٨.

الدولة الإسلامية دولة الضمان الإجتماعي

يقسم علماء السياسة الدول منذ نشأتها الأولى في التاريخ إلى عدة أقسام أو لنقل إلى عدة مراحل. يقولون أن الدولة عندما نشأت في بادىء الأمر كانت تعني أول ماتعني به هو حدودها أي أن مهمتها الأساسية كانت حراسة الحدود من تعديات الأعداء ولذلك سميت الدولة في تلك المرحلة بـ « الدولة الحارسة ». وبعد أن اطمأنت على حدودها بدأت تدخل في نطاق رعاياها وتفض النزاعات الداخلية فيما بينهم ولذلك نشأت كافة المؤسسات الإدارية لتعضيد هذا الدور كقاضٍ ولذلك سميت الدولة في تلك المرحلة بـ « الدولة القاضية ». وبعد أن تأسس دور الدولة في الضبط والربط والبت والحسم في الداخل وبين رعاياها بدأت تقدم لهم الخدمات (بريد ــ كهرباء ــ طرق ــ مستشفيات ــ مدارس.. الخ) بحيث لايشعر المواطنون بأن هناك سلطة رادعة أو حارسة أو قاضية فقط بل أن هناك أيضاً سلطة خيرة تقدم لهم الخدمات ولذلك سميت الدولة في تلك المرحلة بـ « دولة الخدمات ». ومعظم الدول في العصر الحاضر تحاول أن تضفي على نفسها هذه الصفة.

سعي الدول للوصول إلى دولة الضمان الاجتماعي

تعريف الضمان الاجتماعي

أما طموح كل دولة في العصر الحاضر نضجت فيها مرحلة الخدمات. فإنها تود أن تصل إلى صفة « دولة الضمان الإجتماعي » أي دولة يضمن فيها الطعام والشراب والكساء والسكن والزوجة وضمانة من أخطار المرض والجهل والفقر والشيخوخة والعجز والظلم والاستغلال. كل دولة اليوم في الوقت الحاضر تحاول أن تصل إلى هذه المرحلة المتقدمة في تكوينها السياسي والاجتماعي.

الخلافة الإسلامية عهد الضمان الإجتماعي للبشر

إذا كانت الدول بشتى راياتها ومسمياتها في الوقت الحاضر لاتخرج عن هذا التصنيف العام. ففي أي خانة تندرج دولتنا دولة الإسلام التي تلتزم بالاسلام كمنهج. قال ابن سعد في طبقاته وفي تعداده لأوليات عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي لم يسبقه إليها أحد في الإسلام: « إن عمر بن الخطاب أول من دون الديوان وكتب الناس على منازلهم وفرض لهم الأعطيات »[42] كان عمر بن

(٤٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٣، ص ٢٠٢.

الخطاب يعلم يقيناً أن الأموال التي تجمعت من خلال حركة الفتح حق للناس جميعاً، فليست لعمر ولا لآل عمر أو لفئة من الناس دون الناس كما قال عمر نفسه في كتاب إلى حذيفة عامله، أمر عمر رضي الله عنه باتخاذ دفاتر يكتب فيها اسم كل مولود ذكر أو أنثى، مسلم أم غير مسلم، وفرض لكل مولود مائة درهم وجريبين من الطعام في كل شهر تدفع لأهله لافرق في ذلك بين أن يكونوا محتاجين أو غير محتاجين فهو إنما كان يفرض للمولود لا لأهله. ولم يكن عمر يفرق في هذا العطاء بين المواليد الشرعيين واللقطاء ويقول ابن سعد في هذا الصدد: « إذا أتي عمر باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بقدر مايصلحه ثم ينقله من سنة إلى سنة وكان يوصي باللقطاء خيراً ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال »[43]وكان عمر ينطلق في كل ذلك من عقيدة أن الأموال في الدولة الإسلامية هي ملك لجميع الناس ولكل فيها حق يجب أن يصله بما يكفيه ويعف نفسه من غير واسطة بينه وبين السلطة الإسلامية أو كما قال عمر: ودمه في وجهه أي دون أن يطلب. يقول أبو عبيد بن سلام في كتاب « الأموال »: « إن الرجل إذا أراد أن يدعو على صاحبه في أيام عمر قال له: قطع الله عنك جريبك »[44]لم يفرق عمر في العطاء بين الناس حتى على الأساس الديني ورواية أبو يوسف في كتابه « الخراج » لقصة عمر

---

(٤٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٣، ص ٢١٤.

(٤٤) الأموال لأبي عبيد بن سلام ص ٢٤٧.

مع اليهودي الضرير ووضع الجزية عنه وعن ضربائه وإعطائه العطاء لدليل على ذلك[٤٥] وبعد فهل بقيت فئة من الناس لم تلتزم دولة الإسلام في خلافة عمر بأرزاقها؟ اللقطاء والأرقاء والمواليد والغلمان والموالي وأهل ذمة الله ورسوله من اليهود والنصارى. يحق لنا أن نقول: إنه في مجتمع كمجتمع عمر وفي دولة كدولة عمر لايسرق السارق عن جوع إنما عن اعتداء وظلم كبير أفلا يحق لنا اليوم أن نقول بأن دولتنا أيام عمر وصلت مرحلة الضمان الإجتماعي وهي مرحلة لم تزل كثير من الدول المعاصرة تطمع إليها؟.

---

(٤٥) الخراج للقاضي أبي يوسف ص ٧٢.

كيف عامل الإسلام الرأسمالية العقارية؟

تحكم القبائل في الأراضي

عندما كُلف رسول الله ﷺ بالرسالة كانت القبائل القوية تتحكم بأراضٍ شاسعة في جزيرة العرب نظراً لما لتلك القبائل من عصبية قبلية وغلبة وقهر. هذه القبائل القوية كانت تحيط بالحجارة مساحات هائلة من الأراضي الخصبة بحجة أنها مراعٍ خاصة لخيولها ومواشيها بينما في واقع الحال كانت هذه الأراضي المسماة حينذاك بأراضي الحمى يتداولها المتمولون من أقطاب الراسمالية العقارية في مكة والمدينة والطائف ويحرم منها الفرد الضعيف المجرد من السند القبلي. وكانت هذه القبائل القوية تحتكر مياه الآبار وتحبس الماء عن القبائل الضعيفة فتضطر الأخيرة إلى مغادرة مضاربها والارتحال إلى حيث تجد الماء فتتوجه القبيلة القوية الحابسة للماء بالاستيلاء على المراعي المهجورة.

وسائل الرسول ﷺ في محاربة الجشع والاحتكار

وجاء رسول الله ﷺ واتخذ تدابير حاسمة ضد هذا الجشع

والاحتكار لأهم وسائل الانتاج في الجزيرة العربية آنذاك ألا وهما: الأرض والماء.

١ ـــ سحب شرعية أراضي الحمى التي كانت بيد الرأسمالية العقارية حين قال: « لا حمى إلا لله ولرسوله »[٤٦]. وصارت أراضي الحمى بعد ذلك مشاعاً للمسلمين جميعاً.

٢ ـــ بناء على حكمه ﷺ في مهزور وادي بني قريظة أن الماء إلى العقبين لايحبسه الأعلى على الأسفل أو يحبسه الأسفل على الأعلى وبذلك وضع ﷺ حداً لاحتجاز الماء.

النص عن احتكار الأراضي

٣ ـــ من أقواله العظيمة والبليغة في هذا المجال: « من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق »[٤٧]. وبهذا يكون الرسول ﷺ أنهى احتكار الأراضي دون إحيائها بغرض المضاربة بها في نطاق الرأسمالية العقارية في مكة والمدينة والطائف.

---

(٤٦) رواه البخاري في صحيحه ج ٣ ص ١٤٨ وأبو داود ج ٣ ص ٤٦٠ ح ٣٠٨٣.

(٤٧) رواه أبو داود في سننه ج ٣ ص ٤٥٣ ح ٣٠٧٣ والبيهقي ج ٦ ص ١٤٢ والترمذي ج ٣ ص ٦٥٣ ح ١٣٧٨ ومالك ج ٢ ص ٧٤٣ وأبو عبيد في الأموال ص ٣٦٣ ح ٧٠٢.

قال الألباني: صحيح (إرواء الغليل ج ٥ ص ٣٥٣ ط الأولى ١٩٧٩ م وانظر صحيح الجامع الصغير وزياداته ج ٥ ص ٢٣٢ نشر المكتب الإسلامي ١٩٧٢ م.

تحديد ملكية الأرض وتحجيرها

كما حرص رسول الله ﷺ على تحديد ملكية الأرض وتحجيرها. والمحتجر هو الذي يلجأ إلى تحجير الأرض أي وضع الحجر كعلامات لملكيته لتلك الأرض. يروي القاضي أبو يوسف في كتاب (الخراج) حديثاً.

المصطفى: « ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين »[٤٨]. وبهذا يكون الرسول ﷺ قد حدد مدة ثلاث سنين يحتفظ فيها المحتجر بحقه في الأرض أما بعد انقضاء هذه المدة دون إحياء الأرض فإن ذلك يسقط حقه فيها ويفسح المجال أمام باقي المسلمين بإحيائها إما بناء أو زراعة أو ماشاكل ذلك. لقد انهت هذه التدابير عهوداً غابرة اعتمدت فيها الرأسمالية العقارية على الغلبة والقهر والعصبية القبلية حيث كانت الجزيرة العربية وخاصة مراكزها السكانية تتحكم بها التجارة والسمة المركنتيلية لكل العلاقات الاجتماعية.

لقد أدخلت هذه التدابير الاسلامية بشأن ملكية الأرض والماء قيماً اجتماعية جديدة في مجتمع الجزيرة العربية لم يكن له بها عهد مثل سيادة القانون الاسلامي والسلطة المركزية وحق الفرد بغض النظر

---

(٤٨) انظر الخراج لأبي يوسف ص ٧٠ ط الخامسة القاهرة ١٣٩٦ هـ وروي عن عمر وعلي موقوفاً. الخراج ص ٧١ لأبي يوسف.

عن انتمائه القبلي. بدون شك كانت هذه التدابير من الأهمية بمكان ليس فقط في القضاء على التَّنَفُّذِ القبلي. بل حتى على مسيرة الاسلام فيما بعد حيث تبين للكل الاتجاه الجماعي للدعوة الاسلامية وإلغاؤها الجذري لقيم التملك البائدة في عصر عرب الجاهلية.

تحديد الأسعار من اختصاص الدولة الإسلامية

تعريف التسعير :

التسعير هو أن تتدخل الدولة في فرض الأسعار وفي تحديد مقدار الربح ونحن في الكويت بأمس الحاجة لهذا التحديد نظراً للاستغلال الذي يمارسه بعض التجار. والأصل في المعاملات في التشريع الاسلامي أن تكون حرة أي لايجوز للدولة أن تتدخل في إرادة المتعاقدين وهذا هو رأي الجمهور.

اقتضاء المصلحة تسعير الحاجات وهو من اختصاص الدولة

إلا أننا نلاحظ أن المصلحة العامة للمسلمين أحياناً تقتضي التسعير لأن التجار كثيراً مايتلاعبون بالأسعار فيحتكرون السلع الموجودة.

يضطر الناس إلى الشراء، وهذا لاشك احتكار واستغلال وان قواعد الشريعة وأحكامها العامة وروحها تبيح للدولة في مثل هذه الحالة أن تتدخل تمنع هذا الاستغلال ولتحمي مصالح الجماعة الاسلامية أمام استغلال تلك الطبقة من التجار. من أجل هذا ذهب مالك رحمه

الله إلى جواز التسعير لدفع الضرر عن الناس. يقول ابن القيم في كتابه الطرق الحكمية:

(وعلى صاحب السوق الموكل بمصلحته أن يعرف مايشترون به فيجعل لهم من الربح مايشبه وينهاهم أن يزيدوا على ذلك ويتفقد السوق أبداً، فيمنعهم من الزيادة على الربح الذي جعل لهم، فمن خالف أمره عاقبه وأخرجه من السوق، وهذا قول مالك في رواية أشهب وإليه ذهب ابن حبيب وقال به المسيب)[٤٩].

---

(٤٩) الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٥٥ ط مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٣ م بتحقيق محمد حامد الفقي.

الأدلة على جواز التسعير من كلام الفقهاء والمعاصرين

ويقول د. محمد فاروق النبهان في كتابه القيم (الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الاسلامي): « ومما لاشك فيه أن التسعير واجب إذا اقتضته مصلحة الجماعة لأن التسعير المنهي عنه هو تدخل الدولة حيث لاحاجة لتدخلها، أي عندما يبيع التجار بضائعهم بثمن المثل وعندئذ يعتبر تدخل الدولة لافائدة منه، أما إذا كان التجار جشعين ومستغلين وهددوا بهذا الجشع والاستغلال مصلحة الأمة فعندئذ يختلف الحكم »[٥٠] وهذا ماعبر عنه ابن القيم بقوله: « التسعير منه ماهو ظلم محرم ومنه ماهو عدل جائز. فإذا تضمن ظلم الناس وإكراههم بغير حق على بيع بثمن لايرضونه، أو منعهم مما أباح الله لهم فهو حرام وإذا تضمن العدل بين الناس مثل إكراههم على مايجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب »[٥١]

---

(٥٠) الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الاسلامي د. محمد فاروق النبهان ص ٣٨٠ــ٣٨٥

(٥١) الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٩٩، وانظر الحسبة في الاسلام لابن تيمية ص ١٤.

ويقول ابن القيم أيضاً : « ومن أقبح الظلم أن لا يلزم ببيع الطعام أو غيره من الأصناف إلا ناس معروفون ، فلا تباع تلك السلع إلا لهم ، ثم يبيعونها هم بما يريدون ، فلو باع غيرهم ذلك منع وعوقب فهذا هو البغي في الأرض والفساد والظلم يحبس به قطر السماء وهؤلاء يجب التسعير عليهم ألا يبيعون إلا بقيمة المثل ولايشتروا إلا بقيمة المثل بلا تردد في ذلك عند العلماء فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع وحقيقته إلزامهم بالعدل ومنعهم من الظلم »[٥٢] . ويضيف د . نبهان جزاه الله خيراً في مبحثه القيم المشار إليه آنفاً : « وهكذا يتبين لنا أنه يجوز للدولة الاسلامية ، بل يجب عليها أن تتدخل في الشئون الاقتصادية فتمنع الاحتكار وتبيع الأموال المحتكرة بثمن رغماً عن أصحابها وتقوم بتحديد الأسعار إذا أساء التجار في معاملاتهم للناس دفعاً للأضرار التي تلحق المجتمع من جراء ترك الأسعار مطلقة بدون تحديد لأن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الأفراد وأن النصوص التي تمنع التسعير معللة بألا تؤدي حرية الأسعار إلى الاضرار بالناس ، فإذا أدت تلك الحرية إلى الاضرار فعندئذ لاخلاف بين العلماء على ضرورة التسعير »[٥٣] .

---

(٥٢) الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٨٦ وانظر الحسبة في الاسلام أيضاً ص ١٠٩ .

(٥٣) الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الاسلامي د . محمد فاروق النبهان ص ٣٨٤ .

هل لرئيس الدولة في الاسلام مخصصات؟

هل لرئيس الدولة في الاسلام مخصصات؟ وهل هذه المخصصات ــ إن وجدت ــ موجهة لتكفي رئيس الدولة شخصياً أم أنها لعشيرته وقبيلته وحاشيته ومهرجيه وغلمانه كما حصل في العهدين الأموي والعباسي وكما يحصل اليوم في عهد ملوك الطوائف؟ لندع عمر بن الخطاب يتحدث في ذلك لاسواه؛ فقد أخرج ابن سعد في طبقاته كلمات الفاروق وهو يتحدث عن ذلك فيقول:

ماهي مخصصات رئيس الدولة؟

« إنها حلتان: حلة في الشتاء وحلة في القيظ وما أحج عليه واعتمر من الظهر وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبني ماأصابهم »[٥٤].

وها هو أبو بكر يسارع إلى السوق صبيحة يوم استخلافه على رأسه أثواب يريد أن يتجر فيها، وقد كاد يفعل، لولا أن منعه عمر

---

(٥٤) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ١٩٧ .

وأبو عبيدة ليفرغ لأمور المسلمين، إذ قالا له: كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالوا: نفرض لك. ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

مخصصات الخلفاء الراشدين

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال: قال أبو بكر ــ لما احتضر ــ لعائشة رضي الله عنها:

« يابنية إنا قد ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، ولم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر »[٥٦].

فلما مات أبو بكر أرسلت بذلك إلى عمر، فقال عمر: « يرحمك الله ياأبا بكر، لقد اتعبت من جاء بعدك »[٥٧] وأخرج عن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف قال:

« مكث عمر زماناً لايأكل من مال بيت المال شيئاً حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فاستشارهم، فقال: قد شغلت نفسك بهذا الأمر فما يصلح

---

(٥٥) إرشاد الساري للقسطلاني ج ٥ ص ٥٠.

(٥٦) رواه ابن أبي الدنيا وهو مخطوط انظر ص ٧٨.

(٥٧) المرجع السابق.

لي فيه؟ فقال علي كرم الله وجهه: غداء وعشاء ياأمير المؤمنين. فأخذ بذلك عمر »[٥٨].

وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أن عمر الخليفة بن الخطاب كان إذا احتاج ــ وهو خليفة ــ أتى صاحب بيت المال (أبا عبيدة بن الجراح). فاستقرضه، فربما أعسر، فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر وربما خرج عطاؤه فقضاه[٥٩].

المسلمون يفرضون المخصصات للخليفة:

وقد تعددت الروايات في هذا الموضوع تضييقا وتوسيعا ولكنها كلها متفقة بأن تحديد المخصصات للخليفة لا يقوم بها الخليفة نفسه، والأمر الثاني أن المخصصات له شخصيا ولا يستلم من بيت المال مخصصات أحد من عائلته أكثر من أي أعطية لأي مسلم من مستحقيها.

جواز أخذ الخليفة من مال المسلمين ما يسد حاجته فقط:

والخليفة فرد من أفراد المسلمين له حق في بيت مالهم كسائر الناس، فيأخذ منه ما يأخذ منه سائر الناس وله أجرة عمله في بيت

---

(٥٨) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٩.

(٥٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤١.

مال المسلمين لكنه لا يتصرف في بيت المال كيف يشاء. ومع أن المسلمين كانوا قد فرضوا لكل من أبي بكر وعمر مقدارا من المال نظير تفرغهما للقيام بمهام الخلافة، إلا أن كلا منهما كان يأخذ ما يحتاج إليه فعلا من هذا المقدار المفروض له ليسد ضروراته ويتورع أخذ ما زاد عن حاجته، فيرد ما بقي من هذا المقدار الذي فرضه له المسلمون إلى بيت المال.

كيف كان موقف رسول الله ﷺ
من الحرفيين والعمال

حال العرب قبل الإسلام:

عندما جاءت الدعوة الإسلامية كانت الكلمة تحتل مساحة كبيرة من اهتمامات العرب. وكان لكل قبيلة شاعر يبيع كلماتها في سوق عكاظ إما مفاخرا أو هاجيا. في غضون ذلك ضاعت كثير من الحقوق وسادت كثير من المظالم وتكرش الكثير من أرباب الشعر والكلام. ومن يدرس الشعر الجاهلي كقيمة سياسية واقتصادية واجتماعية ـــ لا كفن أدبي ـــ يدرك ذلك تمام الإدراك.

وظيفة الدولة الإسلامية بناء حضارة تعتمد على العمل:

وجاءت الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية الجديدة في المدينة المنورة وعلى رأسها رسول الله ﷺ لتلغي كل ذلك وتحاول أن تبني حضارة جديدة تقوم على العمل لا الكلمة وتطرح في برنامجها عاملا لا شاعراً. وتلك قيمة جديدة في وسط الجزيرة الإنساني. كان العرب قبل الإسلام يعتمدون في حياتهم على الرعي والصيد والنهب والسلب وحراسة القوافل التجارية الرائحة والغادية بين اليمن والشام

وكانوا يعترفون بل يتباهون في أشعارهم ببعض هذه الأعمال كالنهب والسلب والقتل والسطو، ويزدرون سائر الحرف كالزراعة والصناعة والملاحة والتجارة.

احتقار العرب بعضهم لبعض بسبب ما يمارسون من المهن:

وقد استغل أهل الحواضر ــ وهم قلة ــ ما أنف منه أهل البادية ــ وهم الأكثرية ــ في الجزيرة العربية فكان منهم الزراع كأهل المدينة والتجار كأهل مكة، غير أنه بمعنى أشمل ظلت كثير من المهن والحرف مزدراة يعير بها أصحابها.

فالتميميون ــ بني تميم ــ كانوا يعيرون الأزديين بأنهم بحارة لأن أبناء عمومتهم في عمان كانوا يشتغلون بالملاحة، والقرشيون كانوا يحتقرون أهل المدينة لأنهم زراع. وحين لقي أبو جهل مصرعه في غزوة بدر، لم يأسف على مقتله بقدر ما أسف على انتهاء حياته بيد المسلم الأكار (الفلاح) إذ يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: « فلو غير أكار قتلني » أراد به احتقاره وانتقاصه أي: كيف مثل الأكار يقتل مثله أبو جهل[٦٠]. كذلك قال أبو جهل عندما ارتقى ابن المسعود ــ الصحابي الجليل ــ عنقه: « لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم »[٦١] وهو قول يعكس احتقار أبي جهل العربي والقرشي

---

(٦٠) ــ صحيح البخاري ج ٥ ص ٤٨٦ وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٧.

(٦١) ــ سيرة النبي لابن هشام ج ٥ ص ٢٧٧.

للاجارة على رعي الغنم وما أشبه من الاجارات، مثله في ذلك كمثل ما يسمون بـ« أشراف العرب » أي الذين يترفعون عن كل حرفة. أو لم يعلم أبو جهل لعنه الله وأشراف العرب (بأن رسول الله ﷺ كان يرعى غنم أهل مكة مقابل بضع قراريط)[٦٢] بجانب احتقارهم للعمل والمهن والحرف، كانت العرب تبجل الشعراء الذين يمدحون الناس مقابل الدراهم.

التصور الاجتماعي الجديد للعمل:

وجاءت الدعوة الجديدة لتحدث انقلاباً في القيم الاجتماعية وتلغي إلغاء سائر القيم الجاهلية المتعلقة بالحرفة والعمل والعمال والمهن. جاءت الدعوة الاسلامية بتصور اجتماعي جديد للعمل والعمال والمهن والحرف والصناعات والزراعة بل وحتى وللشعر حيث طمحت أن تحوله وتوظفه في التغيير الاجتماعي الذي كانت تنشده بعد أن كان أداة قبلية في تكريس الوضع الجاهلي المتخلف لم تقل الدعوة الاسلامية الجديدة بأن العمل الشريف كرامة فحسب بل رفعته إلى مستوى العبادة والجهاد في سبيل الله.

فضل العمل

قال صحابة رسول الله ﷺ وقد رأوا شاباً قوياً يسرع إلى عمله وحرفته: لو كان هذا في سبيل الله. فيقول عليه الصلاة

---

(٦٢) ـــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ٤ ص ٣٤٩.

والسلام: إن كان قد خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله[٦٣].

ولقد كان رسول الله ﷺ في كل مناسبة يؤكد احترام الدعوة الجديدة للعمل والعمال والحرفة ولايستنكف — كما فعل أرباب العرب في الجاهلية — عن القيام بأوضع الأعمال: فكان يغرس النخل بيديه، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويعلف ناضحه، ويخدم ضيوفه بنفسه، بل ويخدم خدمه، حتى ليقول أنس: خدمته — أي رسول الله — نحو من عشر سنين فوالله ماصحبته في سفر ولاحضر لأخدمه إلا وكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له[٦٤]. ولقد أكد القرآن — دستور الدعوة الجديدة — بأن كل أنبياء الله ورسله كانوا من أصحاب الحرف ومن يبيعون قوة عملهم: إذ عمل زكريا نجاراً، وعمل داود زراداً، وعمل

---

(٦٣) — رواه الطبراني في المعجم الكبير ورجاله رجال الصحيح ج ١٩ ص ١٢٩ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ط : مطبعة الأمة — بغداد.

ورواه الطبراني أيضاً في الصغير ج ٢ ص ٦٠ ط الثانية، المدينة المنورة سنة ١٩٦٨ م قال الشيخ حمدي عبد المجيد محقق الطبراني الكبير: ورواه المصنف في الأوسط (٢٥٢ مجمع البحرين) وقال لايروى عن كعب بن عجرة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن كثير، وهو في الثلاثة بإسناد واحد.

(٦٤) — نهاية الأرب للنوري ج ١٨ ص ٢٦٣.

موسى أجيراً، وكل رعى الغنم. كذلك لم يستنكف الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته أن يعمل أجيراً عند يهودي لقاء تمرات معدودات. فقد روى ابن ماجة عن ابن عباس قال: أصاب نبي الله ﷺ خصاصة، فبلغ ذلك علياً، فخرج يلتمس عملاً يصيب فيه شيئاً ليقيت به رسول الله ﷺ فأتى بستاناً لرجل من اليهود فاستسقى له سبعة عشر دلواً، كل دلو بتمرة، فخيره اليهودي من تمره سبع عشرة عجوة فجاء بها إلى النبي ﷺ[٦٥]. حتى حرفة كنس العذرة أي تنظيف الغائط (والتي نسميها عندنا في الكويت: الصوخة) كتب عنها الفقهاء بأنها ضرورة اجتماعية لابد أن يقوم بها أحد من المسلمين لأن فيه دفع أذية عن الناس. يقول الكاساني في بدائع الصنائع: « يجوز الاستئجار لنقل الجيف والنجاسات لأن فيه دفع أذيتها عن الناس فلو لم تجز لتضرر بها الناس »[٦٦].

الدعوة الاسلامية جاءت بقيمة العمل الحقيقية

خلاصة مانريد أن نذهب إليه هو أن الدعوة الجديدة من خلال دستورها ــ القرآن ــ ومن خلال داعيتها الأول ﷺ ألغت

---

(٦٥) ــ سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٨١٨ حديث ٢٤٤٦ قال محققه: في الزوائد: في إسناده حنش واسمه حسين بن قيس ضعفه أحمد وغيره.

(٦٦) ــ بدائع الصنائع للكاساني ج ٤ ص ٨٩.

ونقضت المفهوم العربي الجاهلي القبلي للعمل والحرفة والعمال ونزعت من المجتمع ترسبات أبي جهل العربية ونفسيته القبلية المريضة التي كانت سائدة قبل مجيء الدعوة ذلك لأن الدعوة الجديدة كانت بصدد بناء حضارة جديدة تقوم دعامة العمل ومن خلال العامل وتلغي حضارة الكلمة التي كانت تقوم أساساً على دعامة الشاعر وشتان بين الحضارتين في ميزان التاريخ .

هل كانت ذات عمر بن الخطاب كرئيس للدولة الاسلامية مصونة؟

الخليفة في الاسلام كأحد آحاد الناس أمام القضاء

هل كانت ذات عمر بن الخطاب كرئيس للدولة الاسلامية مصونة؟ هل كانت ذات أبو بكر الصديق كرئيس للدولة الاسلامية مصونة؟ تنص معظم دساتير الدول العربية و (الاسلامية؟) عن رؤسائها وامرائها وملوكها بأنها: « ذات مصونة لاتمس ولاتجوز مخاصمته باسمه في المحاكم »[67] ماموقف النظام الاسلامي السياسي من هذه القضية الخطيرة؟ النظام الاسلامي يكاد يكون النظام الوحيد الذي لايستثني أحداً ــ مهما كان شأنه ــ في المثول بشخصه أمام القضاء الاسلامي ولو كان الخليفة نفسه، فلا تعرف الشريعة الاسلامية حصانة لأحد في مواجهة القانون الاسلامي كما لاتخص فرداً أو فئة أو عائلة بقانون يخالف مايطبق على باقي المسلمين. فالمبدأ في الشريعة هو وحدتها. وتطبيقاً لهذا المبدأ حرص النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده على الخضوع لأحكام

---

(٦٧) انظر معظم دساتير الدول العربية والإسلامية.

الشريعة وتنفيذها على أنفسهم. فقد خرج النبي ﷺ أثناء مرضه الأخير بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب حتى جلس على المنبر ثم قال:

خطبة الرسول في المساواة

« أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه. ولايخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني. ألا إن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً ان كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس »[٦٨] ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقالته، كذلك كان الخليفة أبو بكر ومن بعده عمر يعطي القود من نفسه.

أمثلة في المساواة

وأبلغ مايستشهد به في المساواة بين الناس أمام القانون ماكان من أمر جبلة بن الأيهم وكان من ملوك آل جفنة، أسلم هو وقومه وحضر لزيارة عمر بن الخطاب في المدينة ـــ العاصمة السياسية للدولة الاسلامية ـــ في خمسمائة من أهله واتباعه ففرح به عمر كقوة جديدة مؤازرة للاسلام وأدنى مجلسه وخرج معه للحج. وبينما جبلة يطوف حول الكعبة وطيء ازاره رجل من بني فزارة فانحل،

---

(٦٨) ـــ ابن الأثير ج ٢ ص ٥٤.

فأخذت جبلة ابن الأيهم العزة بالاثم وضرب الفزاري على وجهه فحطم أنفه. فذهب الفزاري إلى عمر يشكو ابن الأيهم. فاستدعى عمر ابن الأيهم بحضور الفزاري وأقر ابن الأيهم بما هو منسوب إليه، فقال له عمر: لقد أقررت، فأما أن ترضي الرجل وأما أن أقتص منك بهشم أنفك. فقال جبلة: وكيف ذاك ياأمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟ فقال عمر: ان الاسلام قد سوى بينكما فلست تفضله إلا بالتقوى والعافية. قال جبلة: قد ظننت ياأمير المؤمنين أني أكون بالاسلام أعز مني في الجاهلية. قال له عمر في حزم: دع عنك هذا فإنك ان لم ترضِ الرجل اقتصصت منك. قال جبلة: أنا اتنصر. قال عمر: ان تنصرت ضربت عنقك لأنك قد أسلمت فان ارتددت قتلتك. ففر جبلة بليل إلى القسطنطينية وتنصر. فعمر يحرص على تأكيد المساواة أمام الشريعة ولو أدى الأمر إلى فقد كسب كبير للاسلام من القوى المؤيدة له، وقد جرى العمل في الاسلام على مقاضاة الخلفاء بأسمائهم المجردة وبأشخاصهم تماماً كما يحاكم سائر الناس أمام القاضي. وليس هناك في الشريعة الاسلامية جهات أو درجات متعددة للقضاء. ومن ذلك أن الخليفة علي بن أبي طالب فقد درعاً ووجدها مع يهودي يدعى ملكيتها فقال له: بيني وبينك قاضي المسلمين فتحاكما إليه وحضر الامام علي رضي الله عنه واليهودي أمام القاضي فحكم القاضي لصالح اليهودي لأنه حائز للدرع

والحيازة سند الملكية مالم يثبت العكس[٦٩]. وأخذ عمر بن الخطاب فرساً من رجل على سوم فحمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً. فقال الرجل: اني أرضى بشريح العراقي. فمثل عمر والرجل أمام شريح فقال شريح لعمر: أخذته (أي الفرس) صحيحاً فأنت له ضامن حتى ترده صحيحاً سليماً فأدى عمر ثمنه للرجل ولم يكتف بذلك بل عين شريحاً قاضياً[٧٠]. فلا ذات مصونة في الاسلام إلا ذات الله القوي العزيز الجبار.

(٦٩) ـــ ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠١.
(٧٠) ـــ الأم للشافعي ج ٦ ص ٢٦٨.

ظلم الحاكم للناس وتعطيل حرياتهم الشرعية من أكبر المعاصي عند الله

حكم الحاكم الظالم في الشرع

إذا كان الفسوق الشخصي في السيرة الخاصة معصية لله، فظلم الناس، والجور في الحكم، وأكل حقوق الناس بالباطل، وتعطيل حرياتهم الشرعية من أكبر المعاصي عند الله. إذ أن الفسوق الشخصي يظل ضرره يدور في مدار فردي، بينما ظلم الناس والجور في الحكم وأكل حقوق الناس بالباطل والتميز عليهم وتعطيل حرياتهم الشرعية في التعبير وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الضرر من وراء ذلك يصيب الجماعة كل الجماعة ويؤثر تأثيراً كبيراً على كيانها. فإذا كان الحاكم يقرب شرار الناس ويمارس التجارة في الرعية ويأكل من المال العام مالايحق له أن يأكل ويؤثر أقاربه على الناس ويعطيهم مالايستحقونه في الشرع ويبغض الذين يقولون الحق ويؤلب عليهم الناس ويحاربهم ويعطل حرياتهم الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويفتح البلاد للمفسدين ويشجعهم ويدعمهم بالمال ويفتح لهم آفاق الاعلان والاعلام حتى يشيع الفساد وتتخدر الأمة ويصير الناس سكارى لا يستطيعون أن يمارسوا إلا حريات الهبوط إذا

كان الحاكم يسير بهذه السيرة وفوق هذا وذاك يعطل حدود الله ويوالي أعداء الله فهو كافر مهما صلى وصام وحج البيت الحرام وحمل من أسماء الاسلام. أولئك هم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذف فيها، قال أبو حذيفة: يارسول الله، صفهم لنا، قال: « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا »[٧١]. لقد حذرنا رسول الله ﷺ من هؤلاء ــ أمراء السوء ــ وحدد لنا الموقف الذي يجب أن نقفه ونتخذه معهم ومن لف في لفهم:

موقف المسلمين من أمراء السوء:

١ ــ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: « سيلي أموركم من بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله عز وجل »[٧٢].

٢ ــ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ: « ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا

---

(٧١) فتح الباري ١٦ / ١٤٥.

(٧٢) رواه الحاكم ج ٣ ص ٣٥٦ وقال الحاكم: صحيح ورده الذهبي بقوله: تفرد به عبد الله بن واقد وهو ضعيف. والحديث صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير للسيوطي بتحقيق الألباني ج ٣ ص ٢١٨، وسلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ج ٢ ص ١٣٨ حديث ٥٩٠ نشر المكتب الإسلامي ط ١٩٧٢ م.

جابيا ولا خازنا »[٧٣] .

٣ ــ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا فكان من خطبته أن قال : « ألا إني أوشك أن أدعى فأجيب فيليكم عمال من بعدي يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون وطاعة أولئك طاعة ، فتلبثون كذلك دهرا ثم يليكم عمال من بعدهم يقولون ما لا يعلمون ويعملون ما لا يعرفون ، فمن ناصحهم ووازرهم وشد على أعضادهم فأولئك قد هلكوا وأهلكوا ، خالطوهم بأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم واشهدوا على المحسن بأنه محسن وعلى المسيء بأنه مسيء »[٧٤] .

٤ ــ عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون أمراء يقولون ولا يرد عليهم يتهافتون في النار يتبع بعضهم بعضاً »[٧٥] .

اللهم إن الأرض ملئت ظلماً وجوراً ، اللهم فأرح الناس .

---

(٧٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥٥٨ ــ موارد وساق إسناده ، وقال الألباني وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وهو ثقة ، وأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي وهو ثقة حافظ ، وقد أخرجه في مسنده ، فقال الهيثمي في المجمع ٥ / ٢٤٠ رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير ص ١١٧ والخطيب في تاريخ بغداد (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ــ حديث رقم ٣٦٠ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني) .

(٧٤) رواه الطبراني في الأوسط ١ / ١٩٦ / ٢ والبيهقي في الزهد قال الألباني السند صحيح (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ــ حديث رقم ٤٥٨) .

(٧٥) رواه الطبراني في الكبير ج ١٩ ص ٣٤١ قال محققه : وإن كان في إسناده من هو متكلم فيه وانقطاع وله طريق آخر ج ١٩ ص ٣٩٣ .

متى يعتبر الحاكم خائناً لله وللرسول وللمسلمين

خيانة الحاكم:

يعتبر الحاكم خائناً لله وللرسول وللمسلمين عندما ينحاز لأقربائه ومن والاه ضد عموم المسلمين حين تحديد المسئوليات وتسليم الولايات. فالمفترض بالحاكم المسلم أن يستعمل أصلح المسلمين على كل عمل من أعمالهم لأن استعمال الأصلح والأكفأ يأتي بمنفعة ومصلحة للجماعة الإسلامية بينما استعمال العكس يؤدي حتماً إلى ضرر كبير على الجماعة.

يقدم الأصلح الأحق على غيره في الأعمال عامة والمناصب خاصة:

يقول رسول الله ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله»[(٧٦)] وفي رواية: «من قلّد رجلا عملا على عصابة

---

(٧٦) رواه الحاكم في مستدركه ج ٤ ص ٩٢ و ٩٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(الجماعة من الناس) وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين »[٧٧] رواه الحاكم في صحيحه.

وروى بعضهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة فقد خان الله ورسوله والمسلمين »[٧٨] فيجب إذن على الحاكم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع ومنصب أصلح من يقدر عليه وأكفأ من يقوم به.

يقول ابن تيمية في السياسة الشرعية: (فإن عدل عن الأصلح الأحق إلى غيره، لأجل قرابة أو ولاء أو عتاقة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن (حقد) في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾)[٧٩].

يضيف ابن تيمية: (فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته، كذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه، يأخذ ما لا يستحقه أو

---

(٧٧) المرجع السابق.

(٧٨) في معناه حديث يزيد بن أبي سفيان في مستدرك الحاكم ج ٤ ص ٩٣ وسيأتي في ص ٣٧.

(٧٩) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٨، والآية ٢٧ من سورة الأنفال.

محاباة من يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته)[٨٠] انتهى.

قيل لعمر بن عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين أقفرت أفواه بنيك من هذا المال (أخليت أيديهم من المال وأفواههم من ملذات الطعام) وتركتهم فقراء لا شيء لهم. وكان في مرض مرته فقال: أدخلوهم عليَّ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرا ليس فيهم بالغ. فلما رآهم أذرفت عيناه، ثم قال: يا بني والله ما منعتكم حقا هو لكم ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فادفعها إليكم وأنما أنتم أحد رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين وإما غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني)[٨١]. رحم الله عمراً وأمثال عمر. حقا إن الأمارة أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها.

حكام اليوم خونة:

واليوم كما نرى ونشاهد ونلمس صار الحكام خونة لله ولرسوله وللمسلمين، وضاعت الأمانة، ووسِّد الأمر إلى غير أهله، وضاعت الحقوق وصار ولاة الأمر يتاجرون في الرعية مع أن رسول الله ﷺ قال: « إن أخون الخيانة التجارة في الرعية »[٨٢].

---

(٨٠) السياسة الشرعية ص ١١ ط بيروت.

(٨١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠.

(٨٢) كنز العمال ج ٦ حديث ٧٨.

القوة والأمانة ركنا الولاية:

وصارت المسئولية والولاية توسد إلى من هو خال من القوة والأمانة وهما الركنان الأساسيان في ولاية الأمر بمقتضى قول الله وقول رسوله ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الولاء في الدولة الإسلامية لله ولرسوله وللمؤمنين

معنى الولاء:

الولاء في الدولة الإسلامية لله ولرسوله وللمؤمنين. والولاء لله برهانه الانقياد التام لشريعته وأحكامها والحرص على الذود عنها والمقاتلة من أجلها ومن أجل إنفاذ أحكامها حكماً حكماً، وحرب أبي بكر رضي الله عنه لمانعي الزكاة وقتالهم رغم إقرارهم بالشهادتين وصلاتهم وصيامهم خير دليل على ذلك. والولاء للمؤمنين يكون في الحرص على جلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم والوقوف معهم وفي صفهم حسب الطاقة والقدرة في كل وقت وموضع. والولاء لله وللرسول وللمؤمنين جزء من العقيدة في الله والعبودية له وكل خروج على هذا الولاء هو خروج عن الملة الإسلامية والعياذ بالله. وإذا تصادم هذا الولاء لله وللرسول مع الولاء للآباء والعشيرة والعائلة فيجب أن ينحاز المؤمن لله ولرسوله وللمؤمنين غير عابئ بما يعقب ذلك:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم

الظالمون ﴾[٨٣].

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاه، ويحذركم الله نفسه، وإلى الله المصير ﴾[٨٤].

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾[٨٥].

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[٨٦].

كانت هذه الآيات وغيرها لمعالجة الولاء لله في نفوس الجماعة الإسلامية الأولى، ذلك لأن بعض الذين كانوا يدخلون في الإسلام يحاولون المزاوجة بين ولائهم لله من جهة وولائهم لقومهم الذين ما زالوا على الكفر، وروي عن ابن عباس أنه قال: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد من اليهود يباطنون (يلازمون) نفراً من الأنصار يفتنونهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله ابن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر، اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبى

---

(٨٣) سورة التوبة الآية ٢٣.

(٨٤) سورة آل عمران الآية ٢٨.

(٨٥) سورة آل عمران الآية ١١٨.

(٨٦) سورة المائدة الآية ٥١.

أولئك النفر إلا مباطنتهم فأنزل الله : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾[87] .

أنواع العبودية :

إن الولاء لله جزء من العبودية له . يقول ابن تيمية رحمه الله في رسالة « العبودية » إن العبودية لله نوعان :

* عبودية قسرية تتمثل في كون الله ربنا ومالكنا وكوننا خاضعين للقوانين التي جرى عليها الكون والسنن التي نظم بها الخليقة ، فنحن عباد الله بهذا المعنى ـــ شئنا أم أبينا .

* وهناك نوع آخر من العبودية لله نستطيع أن نسميه الخضوع الإرادي أو الانقياد الشرعي وهو الاقرار لله وحده بالعبادة والطاعة فيما شرعه لنا من قوانين لا تصبح نافذة وجارية في الواقع إلا بتدخل من إرادتنا وهو ما يعبر عنه ابن تيمية رحمه الله بـ « عبودية الألهية » .

الولاء لله هو محض الحب لله :

وإن الولاء لله هو محض الحب لله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[88] .

روى الشيخان من حديث أنس مرفوعا : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب

---

(٨٧) سورة آل عمران الآية ٢٨ وانظر رواية ابن عباس في تفسير الطبري ج ٣ ص ١٥٢ ط بيروت .

(٨٨) سورة آل عمران الآيتان ٣١ـــ٣٢ .

المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[٨٩] وعنه أيضا: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[٩٠].

وما رواه البخاري عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال النبي ﷺ: « لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك » فقال عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال له النبي ﷺ: « الآن يا عمر »[٩١].

لذلك كله نقول أن عملية الانقياد السياسي التي يقع فيها المسلمون في هذا الزمان يجب أن تكون مشروطة بانقياد الزعامات السياسية لله ولرسوله وللمؤمنين، وإلا يكون هذا الانقياد السياسي بابا واسعاً يؤدي بنا إلى هاوية الكفر والعياذ بالله.

---

(٨٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ٦٦ و ٧٩، ١٥ / ٣٤٧ ط مصطفى البابي الحلبي، وصحيح مسلم ج ١ ص ٦٦ حديث ٦٧ ط الأولى ــ عيسى البابي الحلبي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م.

(٩٠) فتح الباري ج ١ ص ٦٥، صحيح مسلم ج ١ ص ٦٧ حديث ٦٩، ٧٠.

(٩١) فتح الباري ج ١٤ ص ٣٣٠.

الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة
ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة

ثمة رابط أساسي في تصور الإسلام السياسي بين العدل والظلم والنصر. الله سبحانه وتعالى يقف مع العدل وضد الظلم ومع الدولة العادلة وضد الدولة الظالمة لأن الهدف الأساسي من وراء إرسال الرسل وإنزال الكتب هو تحقيق العدل بين الناس وإفناء الظلم والظالمين: ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[٩٢].

العدل برهان الإيمان والظلم برهان الكفر والعصيان:

العدل والحكم العادل هو برهان الإيمان أو من أهم صفات الإيمان. والظلم والحكم الظالم هو برهان عملي على الكفر والجحود والعصيان لله ذلك لأنه استحلال لما حرَّم الله حتى على نفسه. ولا يقاس إيمان الحاكم بكثرة الركوع والسجود وبالمظهر الديني والاحتفال المبالغ فيه في المناسبات الدينية، بل يقاس في حرصه على العدل وتطبيق ذلك على نفسه وذويه قبل تطبيقه على المستضعفين من الناس

---

(٩٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

« والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها »[٩٣]، هكذا العدل وهكذا أهل العدل.

أسباب انهيار الدولة الإسلامية عدولها عن العدل:

ودولة الإسلام انهارت تاريخيا، ليس لأن « القوى الخفية » تآمرت عليها أو خططت لانهيارها، فتلك القوى كانت ناشطة منذ أول يوم في الدعوة غير أنها فشلت في صدر الإسلام لحرص المسلمين على العدل ولحرص خلفائهم الراشدين على تفادي الظلم. انهارت دولة الإسلام في الفترات اللاحقة لأنها صارت دولة ظالمة، تنكبت عن طريق العدل بين الناس وصار حكامها فوق الشريعة. هذا الظلم والفسق بلغ حدّاً جعل عمر بن عبد العزيز يصرخ ذات مرة في زمن الوليد بن عبد الملك ويقول: (الحجاج بالعراق والوليد بالشام وقرة بن شريك بمصر وعثمان بن حيان بالمدينة وخالد بن عبد الله القسري بمكة، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجوراً فأرح الناس)[٩٤].

حرب الحرة عام ٧٣ هـ ــ أسبابها:

ألا تمثل حرب الحرة ظلماً ما بعده ظلم؟ عام ٧٣ هـ وفي آخر أيام يزيد قرر أهل المدينة أن يزيد فاسق فاجر وظالم ثم ثاروا عليه وطردوا عامله على المدينة وأمّروا عليهم عبد الله بن حنظلة فلما بلغ

---

(٩٣) فتح الباري ج ١٥ ص ٩٣.

(٩٤) ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٢.

ذلك يزيد جعل مسلم بن عقبة (ويسميه السلف الصالح مسرف بن عقبة) على رأس اثني عشر ألفا لمهاجمة المدينة وأمره أن يدعو أهلها إلى الطاعة ثلاثة أيام فإن رفضوا فليقاتلهم فإن هزمهم فليبيح المدينة لجنده ثلاثة أيام.

نتائجها:

سار الجيش الأموي ـ على هذه الخطة حسب أوامر يزيد ووقعت الواقعة وفتحت المدينة ثم ترك العسكر حسب أوامر يزيد ليفعلوا فيها ما يشاؤون وعلى مدى الأيام الثلاثة فنهبت كل ضاحية في المدينة وأعمل العسكر سيوفهم في رقاب أهلها وأبادوا من فيها حتى هلك بأيديهم ـ حسب رواية الإمام الزهري ـ سبعة ألوف من الأشراف وقرابة عشرة ألوف من بقية الشعب. يقول ابن كثير (حتى قيل أنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زواج)[٩٥].

ولو فرضنا أن ثورة أهل المدينة كانت ثورة غير شرعية فهل كان ما فعله يزيد وجيشه مع مواطنين مسلمين من نفس البلد أو حتى متمردين غير مسلمين أو محاربين كافرين عملا شرعيا من وجهة نظر القانون الإسلامي.

أهمية العدل:

العدل محمود لذاته ولو جاء من كافر، والظلم مذموم لذاته ولو

---

(٩٥) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٠٣، ص ٣٧٢، ص ٢١٩ـ٢١١، وانظر أيضا تفصيل هذه الحادثة المشينة في تاريخ الملوك والأمم لابن جرير الطبري ج ٤ ص ٣٧٢، وابن الأثير ج ٣ ص ٣١٠.

جاء من مؤمن، لذلك ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾[٩٦]، ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾[٩٧]، والنصر للحاكم العادل والدولة العادلة ولو كانت كافرة، والهزيمة للدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة ـــ كما يقول ابن تيمية[٩٨]: العدل في السياسة الشرعية الإسلامية جزء من العقيدة الإسلامية ليس فقط جزء من السياسة الحكيمة. لذلك جاءت النصوص القرآنية لتؤكد ذلك: ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾[٩٩]، ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾[١٠٠]، ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾[١٠١]، ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[١٠٢]، ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾[١٠٣].

حكم العدل:

العدل في الدولة الإسلامية وفي العقيدة الإسلامية واجب شرعي ينبغي التقيد به حتى مع الكافر: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو

---

(٩٦) سورة الحجرات الآية ٩.

(٩٧) سورة آل عمران الآية ٥٧.

(٩٨) الفتاوي لابن تيمية ج ٢٨ ص ١٤٦.

(٩٩) سورة الشورى الآية ١٥.

(١٠٠) سورة النحل الآية ٩٠.

(١٠١) سورة الأعراف الآية ٢٩.

(١٠٢) سورة النساء الآية ٥٨.

(١٠٣) سورة الأنعام الآية ١٥٢.

أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[١٠٤]، فما بالك مع المسلم المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والمتحاكم إلى شرع الله والراضي به والمنافح عنه والمقاتل من أجله؟.

حكم مناصرة الحاكم الظالم:

يعلن الله في كتابه الكريم أنه لا يحب الظالمين ــ هكذا على الاطلاق ــ ولو قاموا الليل كله وصاموا الدهر كله؛ إذ أن الظلم ممارسة تتناقض بشكل قبيح وجارح مع جوهر ومقتضى الدين. ومناصرة الحاكم الظالم جزء من الظلم يترتب عليه كره الله لأنصار الظالم ووعيده لهم. لذلك يذم الظالمين وأعوانهم وقراهم ويتوعدهم بالنار والجحيم والعذاب الأليم: ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾[١٠٥]، ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ﴾[١٠٦]، ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[١٠٧]، ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[١٠٨]، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[١٠٩]، ﴿ ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين [١١٠].

---

(١٠٤) سورة المائدة الآية ٨.

(١٠٥) سورة الأنبياء الاية ١١.

(١٠٦) سورة الحج الآية ٤٥.

(١٠٧) سورة البقرة الآية ٢٢٩.

(١٠٨) سورة البقرة الآية ٢٥٤.

(١٠٩) سورة المائدة الآية ٤٥.

(١١٠) سورة آل عمران الآية ١٥١.

النصر من الله :

والنصر لا يكون إلا من الله ، هكذا تعتقد الدولة الإسلامية الشرعية ، لا يكمن النصر ـــ في التصور السياسي الإسلامي ـــ في موازنات الجيوش وفي الأسلحة التدميرية وفي عضلات الارهاب والقمع ، إنما يأتي النصر من الله .

متى يتحقق النصر ؟ :

ولا نكون مستحقين لنصر الله إلا حين يرفع الظلم ويسود العدل ويفنى الظالم ويسود العادل .

ولكي يرفع الظلم ويسود العدل لا بد من الجهاد والصبر والأذى ، ولا بد من طائفة مؤمنة تعمل ليل نهار في سبيل ذلك .

أما أنه ـــ أي النصر ـــ من الله : ﴿ وما النصر إلا من عند الله﴾[111] ، ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾[112] .

وأما أنه للمؤمنين لا للمستكبرين على شرع الله : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[113] .

وأما أنه لمن جاهد وصبر وأوذي في سبيل الله : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله

---

(١١١) سورة آل عمران الآية ١٢٦ .

(١١٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(١١٣) سورة الروم الآية ٤٧ .

يجحدون ٭ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾[١١٤] .

أيها المؤمن كن مع العدل في كل زمان ومكان وضد الظلم في كل زمان ومكان ، فهذا هو جوهر الدين القيم .

---

(١١٤) سورة الأنعام الآيتان ٣٣ـ٣٤ .

ليس لِمُكْرِهٍ بيعة

شرحنا في السابق وبناءً على نصوص من الكتاب والسنة الصحيحة الركيزة الأساسية التي تشكل المسوغ الجوهري لقيام الدولة الإسلامية وهي ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾[115]، أي لتتحقق بينهم العدالة وليتعاملوا بينهم بالنصفة[116]، وبيَّنا استنادا إلى نصوص أن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة نظرا للتلازم في التصور السياسي الإسلامي بين النصر والعدل وقد أشار إلى هذه القضية الإمام الحجة ابن تيمية في الفتاوي[117].

لهذا نجد أن الفقهاء عندما عالجوا موقف الشريعة الإسلامية من موضوع الخلافة وما يتفرع عنه وموضوع الأحكام والأموال الشرعية المتعلقة بها وموضوع العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وواجباتهم تجاه بعضهم البعض والضوابط التي ينبغي أن تحكم تلك العلاقات، أقول نجدهم حين تعرضوا لذلك كله كانوا يتحرون بكل دقة تحقيق

---

(١١٥) سورة الحديد الآية ٢٥.

(١١٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

(١١٧) الفتاوي الكبرى لابن تيمية ج ٢٨ ص ٦٢.

المقصود الشرعي وهو العدل والقسط بين الناس والتخلص وبشكل نهائي من كل صور الظلم والتمايز السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

معنى الخلافة:

فنجدهم ينظرون للخلافة ــ وهي المؤسسة السياسية في الإسلام ــ على أنها مؤسسة شرعية ينبغي أن تقوم على الرضى والاختيار ولا ينبغي أن يدخل فيها أي معنى من معاني الإكراه أو الإجبار.

بيعة الخليفة:

لذلك نجد الفقهاء ــ رضي الله عنهم وعن جميع المؤمنين ــ تفصَّلوا في موضوع البيعة وأثبتوا لنا أن الخليفة لا يصير خليفة شرعيا دون بيعة المسلمين التي تعطى له بالرضى والاختيار لا بالإكراه ولا بالإجبار. ومن هنا يتبين لنا أنه لا يكون أحد خليفة أو رئيساً للدولة الإسلامية إلا إذا ولّاه المسلمون ولا يملك صلاحيات رئاسة الدولة الإسلامية إلا إذا تم عقده لها.

عقد الخلافة:

ولا يتم هذا العقد (عقد الخلافة) إلا من عاقدين أحدهما طالب الخلافة أو المطلوب لها، والثاني المسلمون الذين رضوا به أن يكون رئيساً لهم، ولهذا كان لابد لانعقاد الخلافة من بيعة المسلمين.

التسلط على الحكم لا تنعقد به بيعة:

وعلى هذا فإنه إذا قام متسلط واستولى على الحكم بالقوة فإنه

لا يصبح بذلك خليفة شرعياً ولو أعلن نفسه خليفة لأنه لم تنعقد له الخلافة من قبل المسلمين، ولو أخذ البيعة من الناس بالإجبار والإكراه والمال، لا يصبح خليفة ولو بويع لأن البيعة بالإجبار والإكراه لا تعتبر بيعة شرعية ولا تنعقد بها خلافة شرعية، والمسلمون في حل من طاعته. لذلك نجد أن الإمام مالك وقف وقفة مضيئة في قضية البيعة لكي يؤكد للمسلمين حريتهم السياسية في اختيار الأفضل فالأفضل ولذلك أخذ عليه قوله: (ليس لمكره بيعة)[١١٨]، وقد عذب في عهد أبي جعفر المنصور وضرب بالسياط، مدت يده حتى انخلعت كتفاه.

قصة أبي حنيفة وابن أبي ذئب مع الخليفة المنصور:

يروي ربيع بن يونس حاجب المنصور أن المنصور دعا ابن أبي ذئب والإمام أبا حنيفة وقال لهم: كيف ترون هذا الأمر الذي خولني الله تعالى فيه من أمر هذه الأمة، هل أنا لذلك أهل؟ قال ابن أبي ذئب للمنصور:

(ملك الدنيا يؤتيه الله تعالى من يشاء وملك الآخرة يؤتيه الله تعالى لمن طلبه ووفقه الله تعالى، والتوفيق منك قريب إن أطعت الله تعالى وإن عصيته فبعيد وإن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى لمن وليها، وأنت وأعوانك خارجون عن التوفيق عادلون عن الحق فإن سألت الله تعالى السلامة وتقربت إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك وإلا فأنت

---

(١١٨) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ٨٤.

المطلوب).

قال الإمام أبو حنيفة ـــ والذي كان يقف بجانب ابن أبي ذئب: (كنا نجمع ثيابنا مخافة أن يقطر علينا من دمه) ثم التفت المنصور صوب أبي حنيفة وقال له: وما تقول أنت؟، فقال أبو حنيفة:

(المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب .إن أنت نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا هذا إنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة منك ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل التقوى والفتوى، والخلافة لا تكون إلا باجتماع المؤمنين وبيعتهم ومشورتهم)(١١٩).

هدف الإسلام تحرير الإرادة السياسية للأمة الإسلامية:

هذه مواقف نضالية سياسية إسلامية إزاء قضية البيعة وحرية الأمة في الاختيار السياسي والذي عن طريقه يهدف الإسلام تحرير الإرادة السياسية للأمة الإسلامية من كل القيود غير الشرعية، وهي مواقف بحاجة ماسة لإعادة إحياء ـــ لا على مستوى التدوين والتأريخ ـــ بل على مستوى الممارسة مع حكام اليوم في عرض العالم الإسلامي وطوله. وهكذا إذن نجد أن الإسلام ـــ وفق تصوره

---

(١١٩) مناقب الإمام للكردري ج ٢ ص ١٥.

السياسي العقائدي ــ يعالج الاشكالية السياسية في المجتمع من خلال تأسيس قيادة سياسية تحظى برضا واختيار ومحبة والتأييد الطوعي من الأمة الإسلامية. وكل تعطيل لهذا الركيزة ــ ركيزة البيعة الطوعية الاختيارية للقيادة السياسية ــ هو تعطيل للمضمون السياسي المنشود والمقصود من وراء الخلافة حيث تتجمع الصلاحية السياسية للمجتمع المسلم.

الرقابة الشعبية على الحاكم ضرورة شرعية

عندما عالج الفقهاء موضوع الاشكالية السياسية في المجتمع الإسلامي، نلاحظ أنهم تناولوا موضوع البيعة بالتفصيل والسبب هو أن الإسلام ــ في تصوره السياسي ــ يشدد على أن تكون القيادة مفرزة من خلال نظام اختياري طوعي خالٍ من كل ضروب الإجبار والإكراه.

تعريف الخلافة:

لذلك نظر الفقهاء للخلافة ــ باعتبارها رياسة سياسية عامة ــ على أنها: (عقد مراضاة واختيار لا يدخله إكراه ولا إجبار)[١٢٠] على حد تعبير الفقهاء.

الرقابة الشعبية على الحاكم:

وعندما تنتهي الأمة من مهمة الاختيار لقيادتها السياسية تبدأ تزاول بعدها المهمة الشرعية الأخرى واللازمة لصلاح الأحوال كافة؛ أحوال القيادة السياسية المتمثلة بالحاكم وأعوانه ووزرائه وأحوال الأمة وسوادها. هذه المهمة الشرعية هي مهمة: الرقابة الشعبية على

---

(١٢٠) الأحكام السلطانية، الماوردي ص ٤٦.

الحاكم، فالإسلام لا يعترف بالسلطة المطلقة إلا لله وحده: ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾[١٢١]، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[١٢٢]، ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾[١٢٣]، ﴿ فعّال لما يريد ﴾[١٢٤].

طاعة الأنبياء والرسل والحاكم مشروطة بطاعة الله تعالى:

أما من هم دون الله ــ ويدخل في ذلك الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد ﷺ ــ فحدود الطاعة لهم مشروطة بطاعة الله إذ لا طاعة في الإسلام إلا في حدود ما أنزل الله من حيث النص أو الروح. لذلك فحدود إطاعة الحاكم والدولة في الإسلام لا تكون إلا فيما يوافق شرع الله وقانونه. والدولة الإسلامية دولة قانونية وقانونها شرع الله وهو مضمون العقد السياسي القائم بين الأمة والقيادة السياسية في الدولة الإسلامية.

الأمة اختارت الحاكم ومن حقها مراقبته:

ورقابة الأمة على الحاكم ــ في السياسة الشرعية الإسلامية ــ حق من الحقوق الأساسية وتستمد الأمة هذا الحق من طبيعة علاقتها برئيس الدولة، فهي ــ في الإسلام ــ علاقة وكالة، وحيث أن الأمة

---

(١٢١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

(١٢٢) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

(١٢٣) سورة الحج الآية ١٤ .

(١٢٤) سورة البروج الآية ١٦ .

اختارته ووكلته فمن حقها مراقبته للاطمئنان على حسن قيامه بما وكل فيه من أمر عظيم.

أول منازل تقويم الحاكم النصح:

وحق المراقبة للحاكم يقرره الإسلام ويريد به تقويم الحاكم إذا انحرف عن النهج القويم وأساء استعمال سلطته وأول منازل التقويم النصح. جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: « الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١٢٥]، وإذا لم يفد النصح فمن حق الأمة استعمال القوة اللازمة لتقويم الحاكم وردعه عن الظلم وعن سائر مظاهر الانحراف والاعوجاج، فقد جاء عن النبي ﷺ: « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم أخذاً ولتأطرنه عن الحق أطرا ولتقصرنه عن الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »[١٢٦].

مراقبة الحاكم:

يقول القاضي عياض: (فلو طرأ عليه « أي الخليفة » كفر أو تغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته

---

(١٢٥) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٤ حديث ٩٥.

(١٢٦) الحديث تقدم تخريجه انظر الحاشية رقم ٣٨.

ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل)[١٢٧]، فمطلوب إذن من المسلمين أن يراقبوا الحاكم وما قد يطرأ عليه، ولا يكفي أن يختار المسلمون الحاكم ويدعوه يفعل ما يشاء، فهذا حق لله وحده.

حكم طاعة الظالم:

ومن ضمن ما قد يطرأ عليه هو الظلم والفسق وليس بالضرورة الكفر، فهل مطلوب من المسلمين طاعة الظالم أو الفاسق؟ يقول الفقيه أبو بكر الجصاص في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين ﴾[١٢٨]؛ يقول الجصاص: (فلا يجوز أن يكون الظالم نبيا ولا خليفة لنبي ولا قاضيا ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين ... فثبت بدلالة هذه الآية بطلان إمامة الفاسق وأنه لا يكون خليفة وأن من نصَّب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته)[١٢٩].

خطبة أبو بكر:

في أول عهد أبي بكر رضي الله عنه وفي أول بيان سياسي له بعد البيعة قال:

---

(١٢٧) .

(١٢٨) سورة البقرة الآية ١٢٤.

(١٢٩) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٧٩.

(أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ... لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)[١٣٠].

هكذا إذن يعالج الإسلام الاشكالية السياسية في المجتمع ــ وهي العلاقة بين القيادة السياسية والأمة ــ وتتلخص معالجة الإسلام لهذه القضية في نقطتين:

١ ــ لا بد أن تنفرز القيادة السياسية من خلال نظام اختياري طوعي.

٢ ــ لا بد ــ في كل الأحوال ــ أن يكون لدى الأمة حق المبادأة في تقويم القيادة ومراقبتها وتغييرها إن اقتضت مصالح المسلمين ذلك ومن حق المسلمين استحداث كافة التنظيمات لتحقيق هذه الغاية.

---

(١٣٠) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ص ٤٥٠ وانظر ابن هشام ج ٤ ص ٣١١.

الحقوق السياسية للفرد في ظل الشريعة الإسلامية

الحق الأول: حق الانتخاب:

للفرد في ظل دولة الإسلام حقوق سياسية شرعية ليس من حق أحد ـــ كائنا من كان ـــ أن يسلبه إياها. هذه الحقوق تنفرز من طبيعة العلاقة القائمة بين القيادة السياسية والفرد المسلم فهي علاقة قائمة على الرضا والاختيار ولا يجب أن يشوبها شيء من الإكراه أو الإجبار.

حق امتناع الفرد عن مبايعة الخليفة:

فالبيعة إما أن تكون عن رضى وقناعة وطواعية وإلا فلا تعتبر في الشرع ومن حق الفرد المسلم أن يمتنع عن المبايعة وأن يعلن ذلك وليس من حق رئيس الدولة أو غيره ممن دونه في السلطة أن يضايق ـــ عبر أي إجراء ـــ من امتنع عن المبايعة. وها هو سعد بن عبادة الصحابي المجاهد بماله ونفسه والذي صحب رسول الله ﷺ في غزواته ضد المشركين والكفار يمتنع عن مبايعة أبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة بعد أن بايع الناس أبا بكر، ولم يتخذ ضده

أي إجراء بوليسي كالذي نعيشه اليوم[١٣١].

قولة الإمام علي في الخوارج:

وهاهم الخوارج يطوفون في أسواق المدينة المنورة يحرضون الناس على شتم وقتل الإمام علي كرم الله وجهه فما كان منه إلا أن وقف في المسجد وقال لهم: (لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا)[١٣٢].

لا يكون رئيس الدولة شرعيا إلا باتفاق عموم المسلمين:

هكذا يتبدى لنا أنه ليست في الإسلام قداسة لرئيس الدولة لأنه إنما جاءت بيعة الناس له لا بفضل ذاتي فيه فهو مسؤول أمام الناس وللناس الحق في الاجتراء عليه ورفع الصوت في الحديث معه وقد كان هذا شأن الجماعة الإسلامية الأولى مع الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وحيث أن رئيس الدولة في الإسلام لا يكون شرعيا إلا باتفاق عموم المسلمين عليه كما قال الفقهاء أمثال ابن تيمية وابن قدامة، وإليك أقوالهم في هذا

---

(١٣١) انظر موقف سعد بن عبادة وامتناعه عن مباعية أبي بكر رضي الله عنه في المقدمة لابن خلدون ج ٢ ص ٨٥٣، والطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٣٠١، والمسعودي ج ١ ص ٥١٥، وابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٠١.

(١٣٢) تاريخ الملوك والأمم للطبري ج ٦ ص ٤١.

الشأن: (الإمامة « أي رياسة الدولة » تثبت بمبايعة الناس « لرئيس الدولة » لا بعهد السابق له)[١٣٣]، وكذلك: (من اتفق المسلمون على إقامته وبيعته تثبت إمامته ووجبت معونته)[١٣٤].

إذا كان الأمر كذلك في السياسة الشرعية فلا بد أن يتمتع الفرد في ظل هذا النظام السياسي وفي إطار هذه الرؤية السياسية بحقوق سياسية جوهرية، فما هي هذه الحقوق السياسية المقررة في التشريع السياسي الإسلامي؟.

الحق الثاني: حق المشاورة:

الحق الثاني للأفراد في دولة الإسلام ــ بعد حق انتخاب رئيس الدولة ــ هو حق المشاورة، وهو في الحقيقة امتداد لحق الأمة في انتخاب رئيس الدولة ومبايعته، فما دامت الأمة هي التي تختاره وهو وكيلها في إدارة شؤونها فمن حقها عليه أن يشاورها.

أقوال الفقهاء والمفسرين في المشاورة:

وإذا كان الخطاب في آيات الشورى موجها إلى الرسول الكريم ﷺ على جلالة قدره وعظيم منزلته عند الله، فوجوب المشاورة على غيره من الحكام أوجب وألزم، وعلى ما قلناه تدل أقوال الفقهاء والمفسرين.

---

(١٣٣) منهاج السنة لابن تيمية ج ١ ص ١٤٢.

(١٣٤) المغني لابن قدامة ج ٨ ص ١٠٦.

١ ــ (لا غنى لولي الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ)[١٣٥].

٢ ــ (إنما أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مما أمره بمشاورتهم فيه تعريفا منه أمته ليقتدوا به في ذلك)[١٣٦].

٣ ــ كذلك الرازي يقول: (قال الحسن وسفيان بن عيينة: إنما أمر النبي ﷺ بالمشاورة ــ ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته)[١٣٧].

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه:

ومما يؤكد حق المشاورة للأمة على حكامها أن النبي ﷺ على عظيم قدره ومنزلته وتأييده بالوحي، كان كثير المشاورة لأصحابه. شاورهم يوم بدر في الخروج للقتال وشاورهم يوم أحد أيبقى في المدينة أم يخرج للعدو، وأشار عليه الحباب بن المنذر يوم بدر بالنزول على الماء فقبل منه، وأشار عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يوم الخندق بترك مصالحة العدو على بعض ثمار المدينة فقبل منهما الرأي[١٣٨]. وهكذا كان رسول الله ﷺ كثير المشاورة للجماعة الإسلامية حتى ذكر ابن تيمية أنه لم يكن أحد أكثر

---

(١٣٥) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٧.

(١٣٦) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج ٤ ص ٩٤، وتفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٥٠.

(١٣٧) تفسير مفاتيح الغيب للإمام الرازي ج ٩ ص ٦٦.

(١٣٨) تفسير مفاتيح الغيب للإمام الرازي ج ٩ ص ٦٧.

مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[139].

ترك المشاورة يوجب عزل الحاكم:

ونظراً لثبوت حق الأمة في المشاورة ولزومه على رئيس الدولة صرح الفقهاء بأن ترك هذا الحق من طرف رئيس الدولة موجب لعزله في الإسلام. فقد جاء في تفسير القرطبي: (قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب)[140]، فلا بقاء إذن لحاكم مستبد في دولة تقام على الإسلام.

---

(١٣٩) السياسة الشرعية ص ١٣٥.
(١٤٠) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٤٩.

المضمون السياسي للشورى في التصور الإسلامي (١)

معنى المشاورة:

تقدم بكم أننا بدأنا نطرق الحقوق السياسية للفرد في ظل الشريعة الإسلامية وكان أول حق نبحثه هو حق المشاورة أي حق الناس في أن يشاورهم ولي الأمر والحاكم قبل أن يبت في الأمور الهامة المتعلقة بمصالحهم وحرياتهم الشرعية. ونستكمل هنا البحث في المضمون السياسي لهذا الحق فنقول وبالله التوفيق:

الشورى في القرآن:

نجد أن في القرآن نصين واضحين في آيتين شهيرتين:

(١) **﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾**[١٤١].

(٢) **﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى**

---

(١٤١) سورة آل عمران الآية ١٠٩.

بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾[١٤٣]

نجد في الآية الأولى أمراً إلهيا للرسول ﷺ أن يشاور قومه وذلك لتأليف القلوب وإشاعة المودة بينهم نتيجة المشاورة وتعويد المسلمين على هذا النهج في معالجة الأمور لأن في الرسول ﷺ الأسوة الحسنة لهم، فإذا كان يلجأ إلى المشاورة فهم أولى بها. ونجد في الآية الثانية النص على الشورى كإحدى الصفات المميزة للمؤمنين والمذكورة بين صفات أخرى يمتازون بها وواجبة فيهم (الصلاة والزكاة). يلاحظ كذلك أن الشورى كصفة ذكرت مباشرة بعد ذكر الصلاة للتأكيد على ضرورتها. هذا بالنسبة لثبوت النص على الشورى في القرآن.

الشورى في السنة:

وأما ثبوت النص على الشورى في السنة فنقول ما يأتي: والسنة حجة على جميع المسلمين وأصل من أصول تشريعهم ودليل من الأدلة الشرعية التي يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها .والسنة هي ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير وتشتمل السنة على نوعين من الأحكام: الأحكام البيانية المبينة لما ورد في القرآن الكريم، والأحكام المؤسسة التي وردت فيما لم ينزل به نص قرآني. أما بالنسبة لمبدأ الشورى فإن السنة الشريفة ليست مؤسسة له ابتداءً بل

---

(١٤٣) سورة الشورى الآية ٣٨.

جاءت مثبتة ومؤكدة لما ورد عنه في القرآن الكريم.

ممارسات الرسول ﷺ للشورى:

بالنسبة للسنة الفعلية فقد حفلت ممارسات الرسول ﷺ بالشورى: في غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة الأحزاب وصلح الحديبية وبيعة الرضوان.

أما بالنسبة للسنة القولية فقد روي عن الرسول ﷺ عدة أحاديث تأمر بالشورى وعلى الأخذ بها ومن تلك:

(١) « **ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم** »[١٤٣].

(٢) « **ما خاب من استخار ولا ندم من استشار** »[١٤٤].

(٣) « ما سعد أحد برأيه ولا شقي مع مشورة »[١٤٥].

(٤) « **عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال: مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم** »[١٤٦].

---

(١٤٣) أخرجه ابن شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن (انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي) ج ٢ ص ٣٥٩ ط دار الفكر، النسفي ج ٤ ص ٢٦٦.

(١٤٤) رواه الطبراني في الصغير ص ٢٠٤ ط الهندية، وانظر الأحاديث الضعيفة للألباني ج ٢ ص ٧٨ حدث ٦١١ ط الأولى، وضعيف الجامع الصغير ج ٥ ص ٩٢ حديث ٥٠٥٨ قال الألباني: موضوع.

(١٤٥) هو طرف من حديث « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس » ضعيف الجامع الصغير وزيادته ج ٣ ص ١٧٥ ط المكتب الإسلامي، رواه البيهقي في الشعب والعسكري والقضاعي. انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٢٢ نشر مكتبة المثنى ـ بغداد سنة ١٩٥٦ م.

(١٤٦) رواه ابن مردويه عن علي رضي الله عنه (فتح القدير للإمام الشوكاني

هل الشورى واجبة أم مندوبة؟:

بعد هذا كله لا بد من البحث في مدى وجوب الشورى على ولي الأمر، أي هل يكون اللجوء للشورى أمراً واجباً (فرضاً) أم هو مندوب؟ فإذا كانت الشورى أمراً واجباً (فرضا) كان ولي الأمر والحاكم ملزماً أن يأخذ بها حيث أنه يرتكب إثماً بتركها. أما إذا كانت مندوبة فإن لجوء ولي الأمر إليها يكون اختيارياً لا يأثم بتركها ولا يخطئ.

في هذه القضية نجد أمامنا في الفقه الإسلامي رأيين: رأي يقول بأن الأمر بالشورى للندب والثاني يقول بأنه للوجوب وسنعرض حجج كل رأي منهما ونبين ما نراه أقرب للترجيح بإذن الله تعالى.

ج ١ ص ٣٩٥ ط دار الفكر)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج ٢ ص ٣٦٠ ط دار الفكر.

المضمون السياسي للشورى في التصور السياسي الإسلامي (٢)

مدى وجوب الشورى على الحاكم:

عالجنا فيما تقدم ثبوت النص على الشورى في القرآن والسنة واليوم نعالج مدى وجوب الشورى على ولي الأمر والحاكم. وقلنا أننا نجد أمامنا في هذه القضية رأيين: رأي يقوم بأن الأمر بالشورى للندب والثاني يقول بأنه للوجوب.

أدلة القائلين بالندب:

١ ــ يستند القائلون بأن الشورى مندوبة إلى أن الرسول ﷺ إنما أمر بها تطييبا لقلوب من اتبعه من المسلمين وتألفا لهم على دينهم ليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم[١٤٧]. وقد ذهب إلى هذا الرأي من اعتبار الشورى مندوبة لا واجبة الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث ورد عنه أن الأمر بالشورى هو للندب تطييبا

---

(١٤٧) تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٤٣.

للقلوب[148].

أدلة القائلين بالوجوب وهو الراجح:

٢ ـــ الرأي الثاني الذي يقول أصحابه بأن الشورى للوجوب لا للندب ـــ وهو في رأينا الرأي الراجح ـــ يستند إلى الحجج والأدلة التالية:

أولا: لقد أمر الله تعالى بالشورى في قوله سبحانه: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾، والأصل في الأمر كما هو مقرر في علم أصول الفقه يكون للوجوب ما دام أمراً مطلقا غير مقيد.

ثانيا: ويؤكد وجوب الشورى أيضاً قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[149] بياناً لأوصاف الجماعة الإسلامية وخصائصها وفيه تقترن الشورى وهي عماد الدنيا بالصلاة عماد الدين كما تجيء واسطة العقد في نظام الجماعة الإسلامية القائم على الإيمان بالله والتوكل عليه والاستجابة لأحكامه واجتناب الكبائر وإقامة الشعائر الإسلامية والاعتماد على الشورى والانفاق في سبيل الله ومصلحة الجماعة ورد اعتداء الباغين بمثله. ونحن إذا نظرنا في كل ذلك لا نجد في الآية إلا واجبات مفروضات وملزمة للمسلمين.

ثالثاً: إذا كان بعض العلماء يذهب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾[150] إلى أن مشاورة الرسول ﷺ

---

(١٤٨) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٩٣.

(١٤٩) تفسير الشورى الآية ٣٥.

(١٥٠) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

لأصحابه إنما كانت تطييباً لخواطرهم وتأليفاً لقلوبهم لا للعمل بها نظراً لعدم حاجة الرسول ﷺ إلى الشورى والوحي يرعاه ويسدد خطاه فإن هذا ليس معناه تعميم الحكم بالنسبة لغيره من الحكام لوجود الفارق الجوهري بينه عليه السلام كنبي يوحى إليه وبين غيره من الحكام. ولذلك نجد الفقيه الحنفي الجصاص يقول: (أنه غير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطييب نفوس الصحابة ورفع أقدارهم، كما يذكر بعض الفقهاء، لأنه لو كان معلوماً المستشارون أنهم إذا استفرغوا جهدهم في استنباط حكم ما شوروا فيه وصواب الرأي فيما سئلوا عنه ثم لم يكن ذلك معمولاً به ولا يتلقى بالقبول لم يكن في ذلك تطييب نفوسهم بل فيه إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة ولا معمول بها)[151].

رابعاً: ثم إننا نجد جمهور الفقهاء والعلماء الحديثين يقولون بأن الشورى واجبة وليست مندوبة. وفي مقدمتهم الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا والأستاذ عبد الوهاب خلاف. كما يذهب الشهيد عبد القادر عوده هذا المذهب ويؤكد أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأي الأكثرية[152] (انظر كتابه: الإسلام وأوضاعنا السياسية، القاهرة ١٩٥١ ص ١٤٤) ويذكر السيد محمد رشيد رضا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وشاورهم في

---

(١٥١) أحكام القرآن للجصاص ج ٢ ص ٣٣٠، نشر دار المصحف، القاهرة. تحقيق محمد الصادق قمحاوي.

(١٥٢) الإسلام وأوضاعنا السياسية ص ١٤٤ القاهرة ١٩٥١ م.

الأمر ﴾[153] يقول: ودم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في غزوة أحد وإن أخطأوا الرأي فيها فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابا لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر[154] (انظر: تفسير المنار ج ٤ ص ٤٥).

لهذا نرى أن الشورى واجبة ومفروضة على ولي الأمر والحاكم وأنه يأثم بتركها. وإذا كانت الشورى واجبة شرعا في بلاد المسلمين، وإذا أردنا تطبيق هذا المبدأ على المستوى السياسي فنسأل: كيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعاً؟، هذا ما سنبحثه بإذن الله.

---

(١٥٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(١٥٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج ٤ ص ٤٥.

المضمون السياسي للشورى في التصور السياسي الإسلامي (٣)

كيف تتم المشاورة في العصر الحاضر وفق التصور الإسلامي:

إذا كانت المشاورة أو الشورى واجبا شرعياً ـــ كما بينا ـــ على ولي الأمر والحاكم أن يتقيد به، فكيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعاً نصاً وروحاً في عصرنا هذا؟ الواقع أننا لا نجد في الشريعة نظاماً محدداً يؤدي إلى ذلك ـــ مثل قضية حق الأمة في انتخاب رئيس الدولة (الخليفة) ـــ مما يدل على أن تنظيم هذا الأمر متروك لتقدير الأمة.

وضع نظام لإجراء الانتخاب:

وكما أن الانتخاب المباشر لرئيس الدولة يجد له سنده في السوابق التاريخية الثابتة في عصر الخلفاء الراشدين وهو خير العصور فهماً وتطبيقاً للإسلام. إذ على الدولة في الإسلام أن تضع النظام اللازم لاجراء الانتخاب لكل من أهل الحل والعقد والخليفة وضرورة تمكين الأمة من ممارسة ذلك وضمان سلامة تلك الممارسة الشرعية ومثل هذا الأمر ضروري ولازم لإيجاد أهل الحل والعقد وإثبات وكالتهم عن

الأمة بالتوكيل الصريح لأن التوكيل الضمني ــ والذي كان يعتمد عليه أيام الخلافة الراشدة ــ يتعذر حصوله في الوقت الحاضر.

انتخاب أهل الحل والعقد:

إن ما يوافق العصر إذن ويوافق المقصود الشرعي من وراء مبدأ الشورى أن تقوم الأمة بانتخاب أهل الحل والعقد الذين على رئيس الدولة مشاورتهم في المسائل العامة ويخولون أيضا سلطة انتخاب رئيس الدولة إذا شغر منصبه.

من هم أهل الحل والعقد؟:

وإذا كان انتخاب رئيس الدولة بطريق غير مباشر أمراً سائغا في الشرع الإسلامي وكان الذين يباشرونه هم من يسميهم الفقهاء بـ «أهل الحل والعقد»، فمن هم أهل الحل والعقد؟ من قراءة ما كتبه الماوردي والفراء وابن قدامة وابن تيمية وابن كثير وغيرهم نفهم أنهم المتبوعون في الأمة الذين تثق بهم وترضى برأيهم لما عرف عنهم من الحرص على مصالحها.

وظيفتهم:

وعلاقة أهل الحل والعقد بالأمة علاقة النائب والوكيل فهم يباشرون انتخاب رئيس الدولة نيابة عن الأمة وهم وكلاء عنها ومن ثم يعتبر اختيارهم رئيس الدولة كاختيار الأمة نفسها له. وهم يحوزون منزلة الحل والعقد في شؤون الأمة لأن الأمة هي التي تدفعهم إلى هذه المنزلة وتختارهم لها. أما كيف نعرف أهل الحل والعقد في عصرنا

هذا؟ فلا بد أن تضع الدولة نظاماً انتخابياً يمكن الأمة من اختيارهم واثبات وكالتهم الصريحة عنها.

مراقبة أهل الحل والعقد للحاكم والوزراء:

وهم ــ أهل الحل والعقد ــ يباشرون بعدها بمراقبة رئيس الدولة ووزرائه وأعوانه للتأكد من الوفاء بعقد الوكالة وفق المنهج الإسلامي وتطبيق سائر الأحكام الشرعية ومن خرج عن عقد الوكالة هذا وخرج عن حكم الله وشريعته فهو كافر يجب قتاله كما يقول ابن كثير[١٥٦] في معرض تفسيره لآية ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾[١٥٧].

الشورى نظام إلزامي واجب:

هكذا إذن يتبدى لنا أن نظام الشورى ــ في التصور السياسي الإسلامي ــ ليس كما يتصوره الناس ــ عموم الناس ــ من أنه نظام استرضائي خاضع لمزاجية رئيس الدولة، يأخذ به تارة ويدعه أخرى، بل الحقيقة وكما تظهر من الفقه السياسي الإسلامي إنه نظام إلزامي واجب مكمل لقواعد سياسية شرعية مثل قاعدة البيعة وقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد جاء فيها الأمر الرباني في الكتاب الكريم ومارسها رسول الله ﷺ في أوقات السلم والحرب والنصر

---

(١٥٥) سورة الشورى الآية ١٣٨.

(١٥٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٥.

(١٥٧) سورة المائدة الآية ١٥٠.

وغيره من الأحوال .

لا بد من تمكين الأمة من ممارسة هذا الحق :

لذا نقول : إن الشورى في الإسلام لا تعني أبداً مجرد إيصال رأي المواطن للحاكم ، بل إن هذا المبدأ الإسلامي ينطلق من عقيدة راسخة في صوابية إجماع الأمة استناداً إلى أقوال المصطفى ﷺ : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »[١٥٨] ، و « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[١٥٩] . فلا بد إذن من تمكين الأمة تمارس

---

(١٥٨) انظر الأسرار المرفوعة ص ١٠٦ وانظر مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني ، تحقيق د . محمد بن لطفي الصباغ ص ١٧٦ ط الأولى الرياض ١٩٨١ م وقال الزرقاني : حسن (موقوفا) .

(١٥٩) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٤٦ ، قال السخاوي : وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره . والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري تحقيق محمد الصباغ ص ٨٦ ، مؤسسة الرسالة ١٩٧١ م ، وكشف الخفا للعجلوني ج ٢ ص ٤٨٨ .

ومسند ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٠٣ حديث ٣٩٥٠ قال محققه في الزوائد في إسناده أبو خلف الأعمى واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر قاله شيخنا العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي .

والمستدرك ج ٤ ص ٥٠٧ ، والمسند ج ٦ ص ٣٩٦ ط المكتب الإسلامي ، والطبراني في الكبير ج ٢ ص ٢١٤ حديث ٢١٧١ قال محققه : قال في المجمع وفيه راو لم يسم ١ / ١٧٧ ، ٧ / ٢٢٢ .

ورواه ابن أبي عاصم في السنة ج ١ ص ٤١ ط الأولى ١٩٨٠ م بتحقيق الألباني وقال : حديث حسن وذكره الزرقاني في مختصر المقاصد الحسنة وقال : صحيح

هذا الحق الشرعي عبر مؤسسات نيابية نزيهة لأن السلطات السياسية الشرعية الإسلامية لا تغضب من صراخ الشعب في وجهها سواء في « البرلمان » أو في الشارع، فكثيراً ما صرخ المسلمون في وجه العادل عمر بن الخطاب : والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحد سيوفنا . وما كانَ منه إلا أن قال : لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها(١٦٠) .

---

(١٦٠) أخبار عمر ، الطنطاوي ص ٦٧ .

المضمون السياسي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١)

معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أكثر المسلمين يتصورون أن التكليف الرباني لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوارد في كثير من نصوص الكتاب والسنة، يتصورون أن هذا التكليف لا علاقة له بالشأن السياسي أو أنه لا يحمل في طياته مضموناً سياسياً. ثمة انطباع شائع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي عملية من النصح المتكرر وفي إطار المسلكيات الفردية للناس العاديين، بمعنى أمر الناس بالقيام للصلاة فور سماع النداء أو نهيهم عن شرب الخمر أو لعب الميسر وغيره من ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخطر من ذلك بكثير وأشمل من ذلك بكثير. ودليلنا قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[١٦١]. هذه آية تدعو المسلمين لتشكيل أحزاب سياسية تقوم بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كيف؟. إن الله تعالى ــ في هذه الآية ــ يأمر

(١٦١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

المسلمين بأن تكون منهم جماعة يدعون إلى الخير أي تقوم بالدعوة إلى **الخير** أي الدعوة إلى **الإسلام** وتقوم كذلك بالاضافة لذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ أمر بإيجاد جماعة متكتلة تكتلا يوجد لها وصف الجماعة من بين جماعة المسلمين.

معنى الآية الجماعة للقيام بالأمرين:

فيكون معنى الآية: أوجدوا أيها المسلمون جماعة تقوم بعملين أحدهما تدعو إلى الخير (الإسلام) والثاني أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ويأثم المسلمون إذا لم توجد هذه الجماعة. أما كون هذه الجماعة الوارد الأمر بإقامتها في الآية حزباً سياسياً إسلامياً فإن الدليل عليه أمران: أحدهما أن الله لم يطلب في هذه الآية من **جميع** المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما طلب فيها إقامة جماعة تقوم بهذين العملين. ﴿ **ولتكن منكم أمة** ﴾ والأمة هي الجماعة من الأفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص. فالمطلوب من المسلمين ليس القيام بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل إقامة جماعة تقوم بهذين العملين. فالأمر الإلهي مسلط على إقامة الجماعة وليس على العملين.

المضمون السياسي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢)

مفهوم الآية:

يظهر إذن من الآية: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[١٦٢] أنها أمر للمسلمين بإيجاد أحزاب أو جمعيات أو منظمات تدعو للخير (الإسلام) وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. أما كون هذه الجماعة المطلوب إقامتها حزباً سياسياً فذلك يستفاد من طبيعة العمل الذي تقوم به هذه الجماعة.

وظيفة الجماعة:

فعمل هذه الجماعة ذو شقين: الدعوة إلى الخير (الإسلام) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الدعوة إلى الخير أي الدعوة إلى عموم الإسلام فيمكن أن تقوم به جمعية أو منظمة أو حتى نادي. لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي جاء عاملا وشاملا فلا يمكن أن يقوم به إلا حزب سياسي. لماذا؟ لأنه يشمل

(١٦٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

مراقبة الحكام وأمر الحاكم بالمعروف ـــ الذي هو العدل بالنسبة لموقعهم السيا'سي وكافة ما يتطلبه الأمر بالعدل من مؤسسات رقابية عليهم ـــ ونهيهم عن المنكر ـــ الذي هو الظلم بالنسبة لموقعهم السياسي ـــ وأمر الحكام بالعدل ونهيهم عن الظلم هو جوهر العمل الحزبي السياسي وهو أهم الأعمال التي يقوم بها الحزب السياسي. هذه الجماعة ـــ والتي هي عمليا تشكل حزبا سياسيا ـــ هي الجماعة التي جعل الله إيجادها فرضاً على المسلمين.

غاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يتوضح لنا إذن أن الأمر بالمعروف والني عن المنكر ليس ـــ فقط ـــ منحصر في إطار المسلكيات الفردية للناس العاديين بل

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو في الأساس عملية تصحيحية وردعية لأي حاكم تحدثه نفسه بظلم الناس أو ببخسهم أشياءهم أو هضمهم حقوقهم. وعلى هذا تكون الآية ترخيصاً للمسلمين بإقامة الجماعة، بل أمراً للمسلمين بإقامة الجماعة التي تقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم. وفيهم الجبار الغاشم وفيهم الحاكم المتسلط وفيهم الهابط الذي يكره الصعود وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد وفيهم

المنحل الذي يكره الجد وفيهم الظالم الذي يكره العدل وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة وفيهم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ولا تفلح البشرية إلا أن يسود الخير وإلا أن يكون المعروف معروفاً والمنكر منكراً وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهي وتطاع)[١٦٣].

---

(١٦٣) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٤ ص ٢٦

النضال السياسي ظاهرة لا زمت تاريخ الرسل والدعوة إلى الله (١)

أول من حارب الرسل والأنبياء الشريحة الاجتماعية العليا (الطبقة السلطوية)

ثمة ملحوظةلا يستطيع القارئ لكتاب الله أن يتغاضى عنها أو يسهو عنها وذلك لأنها تتكرر في سور عديدة وضمن ملابسات قصصية متغيرة، الملحوظة هي: أن أول شريحة اجتماعية في المجتمع البشري وعلى مدى التاريخ الإنساني تحركت لمحاربة رسل الله وأنبيائه ودينه هي الشريحة الاجتماعية العليا أو ما نستطيع أن نسميه اليوم بالطبقة السلطوية، كانت مواقف هذه الطبقة من المجتمع البشري تتسم بالعداوة الشديدة لدين الله، وهي عداوة تدفعهم لكثير من الذنوب والمكر والخداع والمؤامرات والافتراء والادعاء والاستكبار والآثام والحرب الشاملة ضد الرسل والفئات القليلة من المؤمنين والتابعين. هذه الطبقة الاجتماعية المشبعة بالعداوة لله ولحزبه يسميها القرآن بأسماء متعددة: **الملأ، وأولو الطول، أولي النعمة، المترفون**.

• ﴿ قال **الملأ** الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به

مؤمنون، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾[164].

* ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك **أولو الطول** منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[165].

* ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وذرني والمكذبين **أولي النعمة** ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما ﴾[166].

* ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال **مترفوها** إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[167].

وتاريخ الدعوة إلى الله في كل مرحلة من مراحله ما هو إلا سلسلة متكررة من الصراع بين الدعاة إلى الله من جهة والطبقة السلطوية المسيطرة والمتمثلة بـ: بالملأ، وأولو الطول، وأولي النعمة، والمترفين. ومن يقرأ سلسلة الصراع هذه كما تتبدى في سور القرآن يدرك أن النضال السياسي ظاهرة لازمت تاريخ الرسل والدعوة إلى الله.

لكن لماذا يحارب هؤلاء دين الله ودعاته؟ لماذا حاربوه في التاريخ وهم اليوم مستمرون في حربهم؟ وكيف يحاربون دين الله؟ وما هي فنونهم في هذا المجال؟ وكيف كان موقف الرسل والدعاة والذين آمنوا؟ وكيف يجب أن يكون اليوم وغداً وأبداً؟ هذا ما سنبحثه بإذن الله.

---

(164) سورة الأعراف الآيتان ٧٥ـ٧٦.

(165) سورة التوبة الآيتان ٨٦ـ٨٧.

(166) سورة المزمل الآيات ١٠ـ١٢.

(167) سورة سبأ الآية ٣٤.

النضال السياسي ظاهرة لازمت تاريخ الرسل والدعوة إلى الله (٢)

في صحيح البخاري ــ كتاب بدء الوحي ــ وفي قصة ورقة ابن نوفل رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ:

« لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأوذي »(١٦٨)

مهمة الدعاة التصدي لأذى الطبقة السلطوية:

هذه كلمة تفتح مغاليق كثيرة وتفسر موقف الملأ، وأولو الطول، وأولي النعمة، والمترفين ــ أي الطبقة السلطوية في كل عصر ــ من دين الله وشريعته. فالأذى الذي يلقاه الدعاة إلى الله من هذه الطبقة بالذات في كل مكان وزمان والنضالات التي خاضها رسل الله ودعاته ضد هذه الطبقة المستكبرة التي تمثلت بأبي جهل وأبي لهب ورأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول وغيرهم وغيرهم في تاريخ الإسلام وقبلهم في تاريخ الرسالات الأخرى. نقول بأن هذا الأذى هو جزء لا يتجزأ من مهمة الدعوة والدعاة أي مهمة التصدي لهذه الطبقة التي لا يقوم وجودها إلا على الظلم والاستغلال والاستعباد للناس، عموم الناس، فالعداء لدين الله مغروس في كينونة

---

(١٦٨) ــ فتح الباري ج ١ ص ٣٠.

هذه الطبقة من الناس لأن دين الله يدعو للقسط بين الناس ووجودها لا يقوم إلا على أساس التمايز بينهم، ولأن دين الله ينظر للمال على أنه ذو وظيفة اجتماعية، بينما تنظر هي للمال على أنه قيمة في ذاته لذلك تحرص على خزنه واحتكاره وتحارب كل محاولة شرعية لتفتيته اجتماعيا عبر الزكوات والصدقات والقرض الحسن، ولأن دين الله لا يؤلّه إلا الواحد الأحد وأما هذه الطبقة ممثلة بفرعون وجنوده فتقول: ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾[(١٦٩)].

ضعف الطبقة السلطوية راجع إلى ضعف تماسكها النفسي:

فالقمع والإرهاب والسجون والمعتقلات لا تغيب في أي مرحلة من مراحل التاريخ عن ذهنية هذه الطبقة. لماذا؟ لأنها طبقة ضعيفة في تماسكها النفسي الداخلي لذلك فهي دائمة المعاناة من المشكلة الأمنية ودائمة الخوف من الناس على عكس المؤمنين الذين ــ برغم كل الأذى الذي يتعرضون له ــ يصفهم الله بـ ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ﴾[(١٧٠)].

هدف الغزوات:

لقد كانت الغزوات الإسلامية صورة من صور الجهاد والنضال العسكري والسياسي للتخلص من عجرفة أولي الطول ومن سيطرتهم

---

(١٦٩) ــ سورة الشعراء الآية ٢٩.

(١٧٠) ــ سورة الأنعام الآية ٨٢.

على مقاليد المجتمع المكي والمدني. وحتى في لحظات الموت لا تتخلى هذه الطبقة عن عجرفتها التاريخية. فحين لقي أبو جهل مصرعه في غزوة بدر لم يأسف على مقتله بقدر ما أسف على انتهاء حياته بيد المسلم الأكار (الفلاح) إذ يقول وهويلفظ أنفاسه الأخيرة: (فلو غير أكار قتلني) أراد به احتقاره وانتقاصه: أي كيف مثل الأكار يقتل مثل أبي جهل[١٧١]، كذلك قال أبو جهل عندما ارتقى ابن مسعود ــ الصحابي الجليل ــ عنقه: (لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم)[١٧٢] وهو قول يعكس احتقار أبي جهل ــ وهو من أولي الطول، والملأ، والنعمة، وفئة الحكم والسيطرة ــ لرعاة الغنم. **أولم يعلم أبو جهل لعنه الله بأن رسول الله ﷺ كان يرعى غنم أهل مكة مقابل بضع قراريط**[١٧٣].

مجاهدة الملأ، أولي الطول، أولي النعمة، المترفين أمر طبيعي:

الملأ، أولو الطول، أولي النعمة، المترفون أي هذه الشريحة الاجتماعية المحددة من الناس والتي تكررت عبر التاريخ البشري ستظل على موقفها من دين الله ودعاته لأن ذلك من طبيعتها ومن طبيعة الأشياء. ونضال الدعوة ضدهم تكرر عبر التاريخ البشري واتخذ أشكالا متعددة وهذا أيضا موقف ثابت لأنه من طبيعة دعوة الله أن

---

(١٧١) ــ صحيح البخاري ج ٥ ص ٤٨٦ والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٧.

(١٧٢) ــ سيرة النبي لابن هشام ج ٥ ص ٢٧٧.

(١٧٣) ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ٤ ص ٣٤٩.

تقارع الظلمة في كل عصر ومكان، ومن يراجع قصص الرسل في القرآن ويتابع إلى النهاية يجد أن مصير هذه الطبقة من المستكبرين على دين الله دائماً إلى زوال وهلاك:

- ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم **مغرقون** ﴾[١٧٤].
- ﴿ فكذبوهما فكانوا من **المهلكين**[١٧٥] ﴾.
- ﴿ **سيهزم** الجمع ويولون الدبر ﴾[١٧٦].
- ﴿ **وأخذنا** الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾[١٧٧].

---

(١٧٤) ــ سورة هود الآية ٣٧.

(١٧٥) ــ سورة المؤمنون الآية ٤٨.

(١٧٦) ــ سورة القمر الآية ٤٥.

(١٧٧) ــ سورة الأعراف الآية ١٦٥.

أشكال.النضال السياسي في تاريخ الدعوة إلى الله « ٣ »

تناولنا موضوع النضال السياسي كظاهرة لازمت وواكبت تاريخ الرسالات السماوية والدعوة إلى الله. وحاولنا في حدود الاستطاعة أن نبين التناقض التاريخي بين ماحدث لرسل الله والطبقة المسيطرة اجتماعياً والذين وصفهم القرآن بـ: أولي الطول، والملأ، وأولي النعمة، والمترفين.

أشكال النضال السياسي: العمل التحتي، العمل النقابي

وهنا يهمنا أن نتعرض إلى شكل النضال السياسي الذي لا زم تاريخ الرسل والدعوة إلى الله فللنضال السياسي أشكال متعددة منها العمل التحتي الذي يقوم على تربية القواعد البشرية، والعمل النقابي الذي يقوم على استراتيجية تحريك الفئات الحيوية في المجتمع وصاحبة المصلحة الأولى في التغيير. والذي يقرأ القرآن وسيرة رسل الله يجد أنهم ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ قد مارسوا كل هذه الأشكال المتنوعة والمتعددة من النضال السياسي.

الشكل الأول: التصدي العلني للطاغوت

غير أن الشكل الذي لازم الدعوة إلى الله في كل أطوارها ــ مع الحفاظ على الأشكال الأخرى ــ هو شكل التصدي العلني للطاغوت والظلم وجملة تفريعاته الاجتماعية والاقتصادية، والذي يدرس تاريخ النظم السياسية ذات المنحى الدكتاتوري الطغياني يجد أن هذه النظم تقوم ــ في الأساس ــ على فرض هيبتها في نفوس الناس عبر تدابير عديدة. كما يتبين أيضاً أن هذه النظم لاترتكز على أرضية صلبة من الانجازات الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية، بقدر ماترتكز على استمرار الردع النفسي للمحكومين عبر هذه الهيبة التي تفرضها عليهم. ويأتي التصدي العلني للطاغوت والظلم ليستهدف كسر هذه الهيبة وتفتيتها وفي النهاية ازالتها من أجل ان يبادر الناس في مقاومة الظلم. هذا التصدي العلني للطاغوت والظلم يستهدف ــ إذن ــ إزالة الهيبة والخوف من نفوس الناس وتحريضهم على المقاومة وعدم الاستسلام للظلم والظلمة. وقصة الحوارات العلنية الصدامية بين موسى عليه الصلاة والسلام وفرعون الطاغية الكافر الظالم تتكرر في سور القرآن. لقد كان فرعون عالياً في الأرض ومن المفسدين المسرفين، يستحيي النساء ويقتل الرجال ويحوز الأموال ويكنزها لنفسه ولذويه وصار الجميع يخافونه ويخضعون له ويهابونه حتى طغى وكفر وقال لهم: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[١٧٨] وظن أنه يملك الملك والأنهار والبحار.

---

(١٧٨) ــ سورة النازعات الآية ٢٤.

فجاء إليه موسى ـــ رغم كل الهيبة التي زرعها فرعون في نفوس الناس ـــ وفي حضور الناس المعدمين والفقراء والمعوزين أي القاعدة الجماهيرية التي يقف عليها فرعون ويدوس عليها بشكل يومي وقال: ﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾(١٧٩) ـــ ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾(١٨٠) ـــ ﴿ ولاتعذبهم ﴾(١٨١)وتبدأ الأرض تتزلزل من تحت أقدام فرعون وتبدأ هيبته تعاني ويحاول أن يستخف بموسى ومن معه ويشكك بهم ويفتري عليهم ويجمع لهم: ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون؟ ﴾(١٨٢) ـــ ﴿ وإن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾(١٨٣) ـــ ﴿ ولئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾(١٨٤) ـــ ﴿ إني لأظنك ياموسى مسحورا ﴾(١٨٥) ـــ ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾(١٨٦) والذي يتأمل بكلمات فرعون هذه التي وردت في القرآن يلحظ التشابه الكبير بينها وبين مايقال اليوم في صحافة الطغاة وأبواقهم عن الدعوة والدعاة. لقد كانت

---

(١٧٩) ـــ سورة الأعراف الآية ١٠٤ .

(١٨٠) ـــ سورة الأعراف الآية ١٠٥ .

(١٨١) ـــ سورة طه الآية ٤٧ .

(١٨٢) ـــ سورة الشعراء الآية ٢٥ .

(١٨٣) ـــ سورة الشعراء الآية ٥٤ .

(١٨٤) ـــ سورة الشعراء الآية ٢٩ .

(١٨٥) ـــ سورة الأسراء الآية ١٠١ .

(١٨٦) ـــ سورة الشعراء الآية ٢٧ .

خطوة التصدي العلني لفرعون بداية النهاية له إذ أدت إلى إزالة الهيبة التي كان يرتكز عليها تلك الهيبة التي تعطل إرادة الناس في مقاومة الظلم وأهله وحزبه، من أجل هذا نجد أن الله في كتابه الكريم يحصن حزب المؤمنين من خشية أو خوف الناس ومنهم الطغاة:

﴿ فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ﴾[187]

﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[188]

﴿ إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾[189]

﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾[190]

الخوف من غير الله ضرب من الشرك

ولذلك اعتبر العلماء أن الخوف من غير الله ضرب من ضروب الشرك، هكذا يتبدى لنا أن النضال السياسي في تاريخ الرسل والدعوة إلى الله ضد الطاغوت والظلم ورموزه البشرية اتخذ اشكالاً عديدة من أهمها التصدي العلني الذي يستهدف ضرب هيبة الطاغوت والطغاة وهي خطوة أساسية وجوهرية نحو النصر عليهم، ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[191]

---

(١٨٧) ـــ سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(١٨٨) ـــ سورة المائدة الآية ٤٤ .

(١٨٩) ـــ سورة النحل الآية ٥١ .

(١٩٠) ـــ سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

(١٩١) ـــ سورة يوسف الآية ٢١ .

﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾[192]

﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾[193]

---

(192) ــ سورة آل عمران الآية 196.

(193) ــ سورة سبأ الآية 19.

أشكال النضال السياسي في تاريخ الدعوة إلى الله « ٤ »

قررنا وبينا أن التناقض التاريخي الجوهري بين ماحدث لرسل الله ودعاته وبين الطبقة المسيطرة اجتماعياً عند مجيء كل دعوة سماوية. وقلنا بأنه نتج عن هذا التناقض صراع سياسي واجتماعي بين رسل الله ودعاته وبين تلك الطبقة من: الملأ، وأولي الطول، وأولي النعمة. وشرحنا بأن هذا الصراع اتخذ أشكالاً عديدة وقد تطرقنا لشكل واحد من أشكال النضال السياسي الذي رفع رايته نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام في وجه الطاغية التاريخي فرعون وهو شكل التصدي العلني للطاغوت من أجل إزالة الهيبة التي يرتكز عليها.

الشكل الثاني: هو الانحياز لصالح المستضعفين والفقراء والمساكين والمضطهدين

من يقرأ تاريخ الرسالات السماوية وسيرة رسل الله يجد أن الرعيل الأول في كل الدعوات **كان** يتجمع من حظائر اجتماعية مستضعفة مظلومة ومقهورة وصاحبة مصلحة في إحداث التغيير الاجتماعي الجذري. نعم هناك من يشذ عن هذه القاعدة ومن يتخلى

عن انتمائه الاجتماعي الأعلى ويتبنى الانتماء إلى العقيدة الجديدة ذات القاعدة الاجتماعية الأسفل، لكن الذين فعلوا ذلك تاريخياً قلائل.

هذا البعد الاجتماعي لدعوة الله لاشك يفسر الكثير من مضامينها السياسية.

* ﴿ قالوا انؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾(١٩٤)
* ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾(١٩٥)
* ﴿ قال الملأ الذي استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾(١٩٦).
* ﴿ للفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾(١٩٧).

لقد كانت دعوة موسى انتصاراً للمستضعفين ضد فرعون. وكانت دعوة شعيب انتصاراً لعموم الناس ضد جشع التجار وضد أشكال الدناءة التجارية الشائعة في مدين ــ قوم شعيب ــ ومازالت شائعة في مجتمعاتنا التجارية.

اهتمام الاسلام بالطبقة الدنيا دائماً

---

(١٩٤) ــ سورة الشعراء الآية ١١١.

(١٩٥) ــ سورة هود الآية ٢٧.

(١٩٦) ــ سورة الأعراف الآية ٧٥.

(١٩٧) ــ سورة الحشر الآية ٨.

أما خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ فكان من دعائه: « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين »[198]. لانعني من وراء ذلك أن طلب الرزق والكد في الحياة من أجله غير مطلوب؛ لكن الذي نقصد أن الاسلام دائم التحسس لأهل القاع الاجتماعي ودائم الحرص على إنصافهم.

• ﴿ ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾[199].

• ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لايستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا وماتنفقوا من خير فان الله به عليم ﴾[200].

---

(١٩٨) ـــ رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب ج ٤ ص ٥٧٧ حديث ٢٣٥٢. ورواه ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٨١ حديث ١٤٢٦.
قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: في الزوائد: أبو المبارك لايعرف اسمه وهو مجهول. ويزيد ابن سنان ضعيف والحديث صححه الحاكم، وعده ابن الجوزي في الموضوعات. وقال = السيوطي: قال الحافظ صلاح الدين ابن العلاء: الحديث ضعيف السند لكن لايحكم عليه بالوضع وأبو المبارك وإن قال فيه الترمذي: مجهول فقد عرفه ابن حبان وذكره في الثقات. ويزيد بن سنان قال فيه ابن معين: ليس بشيء. وقال البخاري: مقارب الحديث، إلا أن ابنه محمد بن يزيد روى عنه مناكير. وقال أبو حاتم: محله الصدق ولايحتج به وباقي رواته مشهورون قال العلاء: انه ينتهي بمجموع طرقه إلى درجة الصحة. وقال الحافظ ابن حجر. قد حسنه الترمذي لأن له شاهداً ٢ / ١٣٨٢.

(١٩٩) ـــ سورة الحشر الآية ٧.

(٢٠٠) ـــ سورة البقرة الآية ٢٧٣.

البحث عن الفقراء والمساكين

الآية السابقة ليست فقط حث على الانفاق بل حث على البحث عن الفقراء والمساكين من أجل انصافهم وتوصيل حقوقهم إليهم. وهذا التحسس الدائم لأهل القاع الاجتماعي وهذا الانحياز لصالح المستضعفين حدد فيما بعد الهوية السياسية للنظام الاجتماعي الذي تأسس في المدينة كما أنه صار معلماً من معالم الخط السياسي للخلافة الراشدة وتلك سنة الدعوة إلى الله عبر تاريخها البعيد والقريب وتلك صبغة النضال السياسي الذي قاده الميامين من صحابة رسول الله ﷺ. وليس من قبيل الصدفة أن يرسل سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية ربعي بن عامر بالذات رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض الوسائد. ودخل بسلاحه على رستم يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقال له رستم: ماجاء بكم؟ فقال: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده[201].

مشهد لايتكرر في التاريخ كثيراً لايقدر عليه إلا الأعلون: المؤمنون.

---

(٢٠١) معالم في الطريق، سيد قطب،ص .

النضال السياسي المتفاعل مع قضايا المرحلة الحيوية « ٥ »

التفاعل الحي مع القضايا المطروحة

بالاضافة إلى التصدي العلني للطاغوت والظلم وأهله والانحياز الدائم للمستضعفين والفقراء والمساكين والمضطهدين، **يتسم النضال السياسي المستقى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالتفاعل الحي مع القضايا المطروحة في المرحلة المعنية**. فلم يكن رسل الله إلا بشراً مثلنا، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويشترون ويبيعون ويتزوجون النساء وينتصرون أحياناً ويهزمون أخرى أي أنهم يعيشون حياتهم بطولها كما يعيش باقي البشر. ولأنهم كذلك فقد تفاعلوا مع قضايا مجتمعاتهم وكان نضالهم وجهادهم دائماً ينطلق من واقع تلك المجتمعات لا من نظرية محلقة في السماء لايتمكن إلا القليل من الناس وعيها وإدراك أبعادها. ولعل هذه الواقعية هي التي برهنت للناس ــ عموم الناس ــ على جدية هذه الرسالات في التصدي لمشاكل الناس في كل عصر، والناس في كل عصر قلما يتفاعلون مع « النظريات والأفكار » بقدر مايتفاعلون مع « المواقف ».

انطلاق الرسل للدعوة من واقع مجتمعاتهم

والحديث الطويل العريض عن العدالة والقسط يغني عنه موقف واحد أو وقفة واحدة مع مظلوم واحد. لأن تلك الوقفة هي المحك العملي لمصداقية الدعوة من أجل العدالة والقسط.

الرسل أصحاب مواقف لا نظريات

ولقد كان رسل الله أصحاب مواقف لا أصحاب نظريات وأفكار ومن هنا صار الناس يتعلقون بهم ويؤمنون بهم. هذه الواقعية الجديّة التي دائماً تتبدى على شكل موقف جدي مع العدل وضد الظلم ومعُ الاستقامة وضد الاعوجاج ومع الطهارة وضد الارتكاس ومع القوة والتماسك والنظافة وضد الضّعف والتَرهّل والقذارة، أقول هذه الواقعية الجدية هي التي أدخلت الناس في دين الله أفواجاً.

* ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال: ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ﴾[٢٠٢].

* ﴿ إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولاتعذبهم ﴾[٢٠٣].

* ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾[٢٠٤].

---

(٢٠٢) ـــ سورة هود الآية ٨٤.

(٢٠٣) ـــ سورة طه الآية ٤٧.

(٢٠٤) ـــ سورة الشعراء الآيات ١٦٠ ـــ ١٦٦.

دعوة شعيب تحارب جشع التجار

نلاحظ أن دعوة شعيب كانت موجهة ضد جشع التجار وضد أشكال الدناءة التجارية التي كانت شائعة فيهم ومازالت شائعة في كثير من المجتمعات العصرية الحديثة. فدعوة شعيب لم تكن دعوة مجردة إنما جاءت باسم الله. لتحارب واقعاً اقتصادياً يقوم على الاستغلال والدناءة والابتزاز.

دعوة موسى تحارب التسلط

ودعوة موسى عليه السلام كانت موجهة ضد الطاغوت والتسلط والعجرفة التاريخية التي كان يمثلها فرعون وما أكثر فراعنة عصرنا هذا. يأتي موسى ــ رسولا من الله ــ ويقول لفرعون: ارفع يدك عن هؤلاء المستضعفين.

دعوة لوط تحارب التحلل الاجتماعي:

ودعوة لوط كانت مرتبطة بواقع إجتماعي منحل جاء ــ باسم الله ــ ليهاجمه ويعلن المفاصلة معه.

هكذا يقف أنبياء الله ورسله صفاً واحداً معارضاً لجشع التجار وطغيان الساسة وتحلل المتحللين. كان إذن النضال الكبير الذي قاده رسل الله ضد الظواهر السلبية في حياة الانسان مرتبطاً بقضايا فعلية تعيشها المجتمعات وأوضاع مريضة يكتوي بها أهل القاع الاجتماعي. وكان نضالاً حياً متحركاً جاداً ذا بعد إنساني كبير.

التغيير الجذري في أوضاع المجتمعات كهدف مركزي لدعوة الله

راية التغيير هي راية الرسل

الذي يتتبع القضايا التي طرحها رسل الله كما جاء في القرآن على مجتمعاتهم المختلفة ويتعرف على حساسية وجوهرية تلك القضايا يدرك أن الرسل كدعاة لله لم يبعثوا ليصطلحوا مع المجتمعات التي أرسلوا إليها أو انهم أرسلوا لكي يلتقوا معها في منتصف الطريق، بل لكي يكونوا ويبنوا تياراً قوياً يستهدف التغيير الجذري في أوضاع تلك المجتمعات. ومن هنا نستطيع أن نقول بأن رسل الله والأجيال المتعددة والفريدة من صحابتهم وتابعيهم كانوا أنصاراً للتغيير الجذري في أوضاع تلك المجتمعات. لذلك لم يكن رسل الله وصحابتهم وتابعوهم من « العناصر المحافظة » أو « اليمينية » ــ من حيث التصنيف السياسي ــ هدفها المحافظة على « الوضع الراهن »، بل كانوا من خلال واقعهم وسلوكهم عناصر متخطية ومتجاوزة ومتقدمة على الأوضاع وداعية لتغييرها من الأساس وفق مضامين ومعايير جديدة تستهدف في النهاية تحقيق العدل الاجتماعي. لذلك ولأن رسل الله ودعاته رفعوا عبر التاريخ راية التغيير كان أول من تصدى

لهم : أولو الطول ، وأولو النعمة ، والحواشي الاجتماعية العالقة بهم من العناصر .

المعوجة التي جاء الرسل لمعالجتها . وحجة هؤلاء في التصدي للدعوة كانت وستظل هي هي :

- ﴿ قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾[٢٠٥].
- ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾[٢٠٦].
- ﴿ قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ﴾[٢٠٧].
- ﴿ قالوا : بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾[٢٠٨].
- ﴿ قالوا : حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا ﴾[٢٠٩].

راية التقليد هي راية السلطة المتسلطة وحواشيها

الراية التي رفعوها في التصدي لدعوة الله والتي أحاطوها بقدسية ومازالوا يفعلون حتى اليوم هي راية التقاليد والأعراف المرتبطة بالآباء والأجداد لا المرتبطة بمضامين الحق والعدل والقسط ومن هنا يتضح لنا أن رسل الله في تاريخ الدعوة كانوا لايعيرون لهذه التقاليد والأعراف وزناً ولااعتباراً طالما أنها لم تنبثق من جذر الحق والعدل والقسط بين الناس . لذلك كان رد رسل الله للمجتمعات التي

---

(٢٠٥) — سورة يونس الآية ٧٨ .
(٢٠٦) — سورة الشعراء الآية ٧٤ .
(٢٠٧) — سورة لقمان الآية ٢١ .
(٢٠٨) — سورة البقرة الآية ١٧٠ .
(٢٠٩) — سورة المائدة الآية ١٠٠ .

رفعت راية التقاليد رداً حاسماً فاصلاً بتاراً :

• ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾[٢١٠] .

لم يكن إذن رسل الله عناصر اجتماعية تقليدية محافظة عالقة بالنظام الاجتماعي وداعية للمحافظة عليه، بل كانوا نماذج بشرية نادرة رفعت راية التغيير الجذري للأوضاع الاجتماعية بكاملها كي تبنى من جديد وفق مضامين ومعايير ومقاييس جديدة منبثقة من جذر الحق والعدل والقسط بين الناس .

طبيعة النظام الاقتصادي قبل الاسلام

لقد كان الربا هو النظام الاقتصادي السائد في الجزيرة العربية وكان اليهود وأغنياء قريش هم المستفيدون من ذلك وكان المعوزون والفقراء والمحرومون في الجزيرة العربية يرهنون لدى اليهود وأغنياء قريش حتى أولادهم وبناتهم في مقابل القروض الربوبية . وصار هذا النظام عرفاً اجتماعياً وجزءاً عضوياً من تقاليد الجزيرة العربية وأعرافها . وينزل الوحي على محمد ﷺ لنسف هذه الوضعية نسفاً ويلغي إلغاء هذا الواقع الباطل الذي تعارف عليه الناس :

• ﴿ الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾[٢١١] .

---

(٢١٠) ـــ سورة الأنبياء الآية ٥٤ .

(٢١١) ـــ سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

• ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[٢١٢].

• ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[٢١٣].

النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية قائم على التمايز

وكان التمايز والتفاضل الاجتماعي يستند إلى الأصول القبلية والثروات المادية والقوة والغلبة والقهر وحتى تقاسم الأراضي لغرض التملك ولغرض الرعي (الحمى) وكذلك تقاسم آبار المياه داخل الجزيرة العربية كان يقوم على هذه التقاليد والأعراف البالية. فينزل الوحي ليؤكد أن هذا التمايز الاجتماعي بين الناس باطل لايقره الحق وأن المال لايجوز كنزه وأن له وظائف اجتماعية وان كانزه ملعون ستكون جهنم له حصيراً وان الحمى لله ولرسوله وأن الأرض لمن أحياها وان الناس شركاء في الكلأ والماء والنار.

• ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٢١٤].

• ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم

---

(٢١٢) ــ سورة البقرة الآية ٢٧٥.

(٢١٣) ــ سورة النساء الآية ١٦١.

(٢١٤) ــ سورة الحجرات الآية ١٣.

تكنزون ﴾ .

• ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ماأغنى عنه ماله وماكسب سيصلى ناراً ذات لهب ﴾[216] . .

هدف الدعوة التغيير الجذري

هكذا إذن يتبدى لنا أن الدعوة إلى الله كانت تستهدف منذ أيامها الأولى التغيير الجذري في الأوضاع الاجتماعية من أجل أن تردها إلى المعايير والمضامين الصحيحة. وهكذا يتضح لنا أن رسل الله ودعاته كانوا ويجب أن يظلوا عناصر مربوطة بالحق أينما دار لا عناصر تقليد أو تقاليد أو أعراف لاعلاقة لها بالحق أو العدل أو القسط إن الدعوة إلى الله والدعاة إلى الله يجب ألا يصطلحوا مع الأوضاع التي لاتقوم على معايير الحق والعدل والقسط بين الناس بل يجب أن يكونوا دعاة تغيير وأدوات تخطي وتجاوز تاريخيين.

---

(٢١٥) ـــ سورة التوبة الآية ٣٤ ـــ ٣٥ .

(٢١٦) ـــ سورة المسد الآيات ١ ـــ ٣ .

هل يجوز للمسؤلين في الدولة الاسلامية أن يمارسوا الأعمال التجارية

أجمع علماء السياسة الوضعية والشرعية على أن أهم صفة للسلطة السياسية الراشدة هي صفة: العدالة، كما أنهم أجمعوا أن هذه الصفة لاتتحقق في الحكم الراشد إلا إذا وقف من فيه موقفاً حيادياً إزاء فئات وأفراد المجتمع المحكوم. هذا الحياد الاجتماعي للسلطة السياسية هو الذي يتبدى على شكل عدالة اجتماعية تشمل الجميع في المجتمع السياسي.

الفكر السياسي الوضعي عبر التاريخ يحاول التوصل إلى صيغة سياسية للحكم تتحقق فيها العدالة

والذي يدرس الفكر السياسي الوضعي وتاريخه منذ الاغريق والرومان والعصر الوسيط والحديث يجد أنه عبارة عن محاولات متكررة من جانب فلاسفة السياسة للتوصل إلى صيغة سياسية للحكم تتحقق فيه صفة الحياد الاجتماعي للسلطة السياسية من أجل أن تشمل الجميع العدالة.

بعض الكتاب الذين حاولوا التوصل للصيغة السياسية السليمة في الحكم

استغلال النفوذ لجلب المنافع:

حتى الذين يستغلون نفوذهم وسلطتهم لجلب المنافع والمغانم لهم ولذويهم وجمع الأموال « والهدايا » قد حذر منهم رسول الله ﷺ.

ففي البخاري عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، قال: استعمل النبي ﷺ عاملا من الأزد يقال له عبد الله بن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ. فقال النبي ﷺ: « فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليَّ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يغل منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته. إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه وقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ ثلاثا »[٢١٩].

الاستيلاء على الأراضي:

ومن صور استغلال النفوذ للأغراض التجارية **الاستيلاء على الأراضي** والمضاربة بها، فهاهو رسول الله ﷺ ينذر هؤلاء:

* « **من أخذ من الأرض شيئاً ظلماً، جاء يوم القيامة يحمل ترابها إلى المحشر** »[٢٢٠].

---

(٢١٩) فتح الباري ج ١٤ ص ٣٣٢.

(٢٢٠) مسند أحمد ج ٤ ص ١٧٣، صحيح الجامع الصغير للسيوطي

• « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[221].

أهم أسباب سقوط الدولتين الأموية والعباسية:

الذي يدرس الفترة الأموية والعباسية يلاحظ أن من أهم أسباب سقوط تلك الدول يعود إلى الخروج عن السنن الشرعية في المجال الذي نبحث. حيث أنه لم تعد الخلافة والولاية في تلك المراحل من التاريخ الإسلامي رياسة عامة للمسلمين حريصة على نفعهم بقدر ما صارت طرفاً اجتماعياً في السوق حريصاً على جلب المنافع المادية والمالية، لذلك انطلقت الأيدي بالعسف والجور في جباية الأموال وبالوسائل غير المشروعة وبإرهاق الناس بالضرائب الفادحة فزادوا في الخراج والجزية على حين كانت الزيادة تناقض العهد وفرضوا الضرائب حتى على الأراضي الخراب وفرضوا « هدايا » على الذميين في عيد النيروز ووضعوا ضرائب على مرور السفن بالماء ووضع مروان بن محمد في ولايته على أرمينية ضرائب الأسماك. ومع هذا التفنن في ضرب الضرائب استخدموا القسوة في تحصيلها مما أدى إلى نفور الناس وتذمرهم وثورتهم[222].

ج ٥ ص ٢٣٣ حديث ٥٨٦٠ قال الألباني: صحيح، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨٨ حديث ٢٤٢.

(٢٢١) صحيح الجامع الصغير للسيوطي ج ٥ ص ٢٣٢ حديث ٥٨٨٩ قال الألباني: صحيح.

(٢٢٢) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف ص ١٤٨.

وكتابات أفلاطون في « الجمهورية » و « القوانين » عندما كان يتوغل في التنظير لدولة المدينة وأرسطو في « السياسات » وشيشرون وسينيكا في العصر الروماني مروراً بالعصر المسيحي ممثلاً بتوما الأكويني وجون الباريسي إلى « يوتوبيا » توماس مور و « جمهورية » جان بودان وتوماس هوبز وهاليفاكس ولوك ورسو في « العقد الاجتماعي » وغيرهم وغيرهم، ليست هذه الكتابات سوى محاولات بشرية متكررة عبر عصور عديدة للتوصل إلى صيغة سياسية يتحقق عبرها الحياد الاجتماعي للسلطة السياسية وذلك لكي تحظى بمصداقية تؤهلها لفض النزاعات بين الفئات الاجتماعية ذات المصالح المتباينة.

الضوابط هدفها المحافظة على الحياد الاجتماعي

لهذا وضع علم السياسة الوضعية وعلم السياسة الشرعية عدة ضوابط وحدود وأطر وكوابح كيما تظل السلطة السياسية ضمنها لا خارجها من أجل المحافظة على الحياد الاجتماعي وهي صفة ضرورية لأي حكم راشد، فإن جرحت هذه الصفة ـ صفة الحياد الاجتماعي ـ للسلطة السياسية صارت الأخيرة طرفاً في النزاع الاجتماعي وبالتالي غير مؤهلة للحكم بالعدل.

جرح الحياد الاجتماعي بدخول السوق للحاكم

ومن أخطر الطرق لجرح الحياد الاجتماعي للسلطة السياسية هو في أن تدخل السوق وتصير طرفاً فيه. ذلك أن كونها طرفاً تجارياً

في السوق سيدفعها حتماً لاساءة استعمال السلطة واستغلال النفوذ من أجل الأغراض التجارية المرتبطة بحركية التجارة. وهذا من شأنه أن يقود إلى ظلم بعض الأطراف الاجتماعية، والظلم يقود إلى التذمر، والمكاسب التجارية قد تغري السلطة السياسية بكبح التذمر ،والكبح قد يولد ردود فعل لن تكون بالضرورة لصالح الاستقرار الاجتماعي.

الاسلام وضع قيوداً لمن يتولى المسؤولية السياسية

من أجل هذا نجد أن الاسلام ــ عبر أنظمته واجراءاته وتعاليمه وأصوله العديدة ــ يضع القيود الكثيرة على من يتولى المسؤولية السياسية حتى لايصير طرفاً تجارياً في السوق ومايترتب على ذلك من مخاطر اجتماعية.

يقول المصطفى ﷺ: « من أخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته »[٢١٧].

سارع أبو بكر صبيحة يوم استخلافه وعلى رأسه أثواب يريد أن يتجر فيها، وقد كاد يفعل، لولا أن منعه عمر وأبو عبيدة ليفرغ لأمور المسلمين، إذ قالا له: **كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين؟** قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالوا: نفرض لك، ففرضوا له كل يوم شطر شاة رضي الله عنه وأرضاه[٢١٨].

---

(٢١٧) ــ كنز العمال ج ٦ حديث ٧٨.

(٢١٨) إرشاد الساري شرح البخاري للقسطلاني ج ٥ ص ٥٠.

واضح من خلال ما ذكر أن اشتغال المسؤولين في الدولة الإسلامية بأمور التجارة سيؤدي حتماً إلى جرح في عدالتهم كما حدث في التاريخ الإسلامي، وإذا وضعنا في الاعتبار النصوص الشريفة من حديث رسول الله ﷺ، تبين لنا أن الدليل الشرعي والعقلي يؤدي بنا أن الإسلام لا يجيز أن يشتغل المسؤولون عن المسلمين بأمور التجارة لأنها ستؤدي في النهاية إلى الظلم المناقض لجوهر الدين.

والله أعلم. ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾[٢٢٣].

---

(٢٢٣) سورة طه الآية ١١٤.

قيام الدين بالكتاب والميزان والحديد

فترات السلم والهدوء أقل من فترات الحروب في تاريخ البشرية:

الذي يتفحص التاريخ السياسي والعسكري للإنسان فوق هذه الأرض يلاحظ أن التنازع والصراع والحروب قد احتلت الجزء الأكبر من التاريخ الإنساني وأن فترات السلم والهدوء لم تتحقق إلا نادراً وأنها لا تطول مهما كانت مفيدة للإنسان. ويعلمنا تاريخ الإنسان السياسي والعسكري أن الحقائق السياسية والعسكرية اليابسة المتحققة فوق الأرض أبعد أثراً في صياغة المستقبل من كل الأفكار والنظريات والأشعار. ومن يتفحص القرآن الكريم وسيرة المصطفى ﷺ يلحظ أن كليهما يؤكدان تلك المقولة. والإسلام لم يحقق هذا الانتشار الكبير في العالم إلا عندما انطلق أبناؤه من التسليم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

مئات الأطنان من المواد تلقى في المحيطات عمداً للمحافظة على السعر التجاري:

ولو تفحصنا حتى حقائق هذا العصر السياسية للمحنا القوة والحديد من ورائها. فالعالم لا يعترف بالضعيف ولا بحقوقه مهما استندت على كل الشرعيات المتعددة. يكفي أن نعرف أن خمسين مليون نسمة يموتون سنويا من الجوع في العالم وأنه مع هذا مئات الملايين من أطنان القمح والسكر والزيوت والفواكه والخضروات تلقى عمداً في المحيطات البعيدة وذلك للمحافظة على سعرها التجاري في الأسواق العالمية. ولنسأل أنفسنا: من يقف وراء ذلك؟ إنها الرأسمالية العالمية التي تصدر لنا المواد الاستهلاكية بالأسعار التي تحددها هي. علام تستند الرأسمالية في علاقتنا بها وعلاقتها بنا؟ على تبعيتنا لها وسيطرتها علينا؛ السياسية والاقتصادية والعسكرية: أي على كل أنماط وشكليات القوة.

قيام الدولة الإسلامية بالقرآن والميزان والحديد:

منذ البداية أدرك المعلم الأول رسول الله ﷺ أن دولة الإسلام ودين الإسلام لا يقوم إلا بالكتاب والميزان والحديد. كتاب يهدي به وميزان به تقوم الحقوق الإنسانية وحديد ينصره وبه تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين. لذلك كان للرسول ﷺ كوكبة من المجاهدين ترافقه في السفر والغزو تسمى « الكتيبة الخضراء » قال ابن هشام: وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها[٢٢٤]. وخلال فتح مكة يأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بواد حيث

---

(٢٢٤) سيرة النبي لابن هشام ج ٤ ص ٢٣.

يرى جند الله ويقول: « يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها »[٢٢٥]. ويمر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فيقول أبو سفيان: سبحان الله يا عباس من هؤلاء: فيقول له العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فيقول أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة[٢٢٦]. كان رسول الله ﷺ يؤكد دائما للمؤمنين بأنهم الأعلون وبأن يدهم هي العليا وكان يردع كل الرايات الأخرى أن ترتفع فوق راية الإسلام. حتى الذين تجاسروا على سب الإسلام مثل عصماء بنت مروان التي وضعت أربعة أبيات من الشعر في ذلك فإذا بالرسول ﷺ يستحث همة عمير بن عدي ليقتلها ويقول له: « ألا آخذ لي من ابنة مروان؟ فسرى عليها عمير في بيتها وقتلها ثم أصبح مع رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله إني قد قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير »[٢٢٧]. ولم يكن رسول الله ﷺ والجماعة الإسلامية الأولى ينتظر الخطر حتى يدهمه بل كان يدهم ويباغت الأعداء في دورهم.

بعث الرسول عبد الله بن أنيس لقتل ابن سفيان بن نبيح الهذلي:

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن أنيس: دعاني رسول الله ﷺ فقال: « إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي

---

(٢٢٥) سيرة النبي لابن هشام ج ٤ ص ٢٢.

(٢٢٦) سيرة النبي لابن هشام ج ٤ ص ٢٣.

(٢٢٧) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ٤ ص ٢٠٩.

الناس ليغزوني وهو بنخلة أو بعرفة فأته واقتله. قلت يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه قال: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة. قال: فخرجت متوشحاً سيفي حتى دفعت إليه وهو في ظعن (النساء في الهوادج) يرتاد لهن منزلا وكان وقت العصر. فلما رأيته وجدت ما قال لي رسول الله ﷺ من القشعريرة فأقبلت نحوه وخشيت أن تكون بيني وبينه مُجَاوَلَة تشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك. قال: أجل إني لفي ذلك. قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف فقتلته ثم خرجت وتركت ظعائنه (نساءه) منكبات عليه فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: « أفلح الوجه » قلت: قد قتلته يارسول الله. قال: صدقت. ثم قام بي فأدخلني بيته فأعطاني عصاً فقال: « أمسك هذه العصا عندك ياعبد الله بن أنيس » قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ماهذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها عندي. قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لم ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخصرون يومئذ (أي المتكئون على المخاصر والمخاصر مفردها مخصرة: العصا). قال: فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه فلم تزل معه حتى مات ثم أمر بها فضمت في كفنه ثم

دفنا جميعاً[٢٢٨].

قتل الجاسوس

وكان رسول الله ﷺ يأمر بقتل الجاسوس على الجماعة الاسلامية ففي صحيح البخاري: « حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو العميس عن إياس بن سلمة ابن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي ﷺ عين (أي: جاسوس) من المشركين وهو في سفر، فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل (أي: انصرف) فقال النبي ﷺ: اطلبوه واقتلوه فقتله ـــ أي سلمة بن الأكوع ـــ فنفله سلبه (أي: أعطى النبي ﷺ بن الأكوع سلب ذلك الجاسوس)[٢٢٩].

إن الدعوات، والدول التي تقوم عليها، لاتدوم ولاتسود عن طريق التمني والمناشدة الصاخبة للنزعات السلمية والاستسلامية والانهزامية، بل تقوم على الكتاب الذي يهدي والعدل الذي يقسط بين الناس وأولاً وأخيراً الحديد الذي يحمي ويردع، يحمي حوزة الايمان وأهله ويردع كل المستكبرين والمنافقين و « إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن »[٢٣٠]. كان النبي ﷺ حتى إذا زار المريض استحث فيه القوة وحرضه على القتال إذ كان يدعو له

---

(٢٢٨) ـــ سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ٤ ص ١٩٧.

(٢٢٩) ـــ صحيح البخاري ج ٥ ص ١٧٤.

(٢٣٠) قول ينسب لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

بالقول: « اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً، أو يمشي لك إلى صلاة »[٢٣١].

---

(٢٣١) — في أبي داود أو يمشي لك إلى جنازة. من غير ذكر للصلاة. انظر ج ٣ ص ٤٨٠، وأخرجه ابن حبان انظر موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ص ١٨٣ حديث ٧١٤ ط: المطبعة السلفية.

ورواه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٣٤٤ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

الموقف من الإقطاع السياسي

ارتباط القبيلة أو العشيرة بالمنصب السياسي في المجتمع العربي

أخطر مافي التشكيل الاجتماعي عند العرب رسوخ مفاهيم القبيلة والعشيرة والقوم وانعكاس ذلك على توزيع المسئوليات السياسية في المجتمع العربي. ومن يدرس الشعر الجاهلي كتراث سياسي يتضح له هذا الأمر بلا كثير عناء ولقد أثر هذا الأمر كثيراً على التطور السياسي للمجتمع العربي، كما أنه ضبط إلى حد كبير ولفترة طويلة علاقات المجتمع العربي السياسية بباقي المجتمعات المحاذية، داخلياً وضمن العرب أنفسهم ساهم رسوخ مفهوم القبيلة والعشيرة والقوم في تقسيم المجتمع إلى طبقات سياسية محددة تكرست فيما بينها الفوارق الاقتصادية والاجتماعية ومن يدرس ظهور الحرف في المجتمع العربي وتوزيع الثروة والقيم الاجتماعية والتذمر السياسي الذي عكسه شعر الصعاليك أمثال الشنفرى يتوضح له أكثر من جانب في هذا الموضوع. هذه الطبقات السياسية التي انفرزت من خلال رسوخ مفاهيم القبيلة والعشيرة والقوم عند العرب، صارت فيما بعد مؤسسات سياسية تحتكر المبادرة السياسية

في المجتمع العربي وبالتالي ساعدت كثيراً على جموده وحالت دون حركته وحيويته.

« الندوة » تعبير واضح لسيطرة الطبقات السياسية

ومن يدرس تشكيل « الندوة » كمؤسسة سياسية تجمع في ظل الكعبة قبل الاسلام وفي أيام ظهوره يدرك إلى أي مدى أنها كانت تعبيراً واضحاً عن سيطرة تلك الطبقات السياسية التي تستند على فعاليتها التجارية في رحلة الشتاء والصيف على مجمل الحياة السياسية في مكة والمدينة والطائف وسائر أنحاء التجمعات السكانية في الحجاز.

طرح الاسلام للمفاهيم الجديدة كالأمة والمؤاخاة

وعندما جاء الاسلام كمنهج جديد لحياة كاملة وشاملة اصطدم وبشكل مباشر بمشكلة القبيلة والعشيرة والقوم حيث طرح مفهوم « الأمة » و « المؤاخاة » بين الأضداد القبلية و « التقوى والبلاء » و « العمل الصالح » و « الناس سواسية كأسنان المشط »، وهذه كلها مفاهيم كانت جديدة على العربي وتصطدم ــ وبشكل مباشر ــ مع عقيدته في القبيلة ومع أولويات العشيرة وقدسية القوم. هذه المفاهيم الجديدة التي طرحها الاسلام على المجتمع العربي خاطبت بالفعل ضمير القاعدة الاجتماعية الأعرض والتي لم تكن القبيلة السياسية المحتكرة تعبر عن مكنوناتها.

استقطاب العناصر الاجتماعية للدعوة الاسلامية

لذلك سارعت كل العناصر الاجتماعية الراغبة في المساواة والتحرير الاجتماعي والكرامة في رحاب العبودية لله، أقول سارعت لحظيرة الدعوة الجديدة التي ضمت في كنفها نزعاً اجتماعية من كل زوايا الجزيرة العربية. ووجد ــ من خلال الدعوة الجديدة ــ كثير من أبناء القاعدة الاجتماعية الأعرض المزدراة في المجتمع الجاهلي فرص الصعود الاجتماعي والسياسي لاختلاف المعايير الاجتماعية والسياسية التي جاء بها الاسلام عن نظيراتها في المجتمع العربي الجاهلي.

محاولة العرب لرد المجتمع القديم

وحاولت قوى الاقطاع السياسي العربي ذات الفعالية التجارية ــ وخاصة خلال خلافة أبي بكر رضي الله عنه وعبر حروب الردة ــ أن تسترد المبادرة السياسية لتعيد المجتمع العربي إلى الوراء بعد أن تحرر من الاقطاع السياسي والتفاوت الاجتماعي.

وظلت مسألة القبيلة السياسية والاقطاع السياسي مشكلة قائمة تتفاعل في المجتمع العربي لمدة قرون وحتى عصرنا هذا رغم الشجب والرفض الذي يقفه منها الاسلام من خلال تعاليم دستوره (القرآن الكريم) وسنة رسول الله ﷺ.

تخصيص الاقطاع السياسي لفئة معينة

عملياً يتبدى الاقطاع السياسي من خلال تخصيص المسئوليات

السياسية لقبائل معينة أو حتى قبيلة معينة. والريادة السياسية في المجتمع الخاضع للاقطاع السياسي لاتتحصل عن طريق « التقوى » أو « البلاء » أو « العمل الصالح » أو الانتماء « للأمة » بقدر ماتتحصل عن طريق « الصدف البيولوجية » الصرفة. ومن يراجع تاريخ المجتمع العربي القديم والوسيط والحديث لن يجد كثير عناء في تحديد أسماء أطفال لم يبلغوا الحلم تسلموا وهم أطفال « مسئولياتهم السياسية » !.

علاج الاسلام لهذه القضية

وعندما جاء الاسلام حدد موقفه من هذه القضية بشكل لا أقول فقط واضح، إنما مدبب أيضاً.

استعمال الأصلح للولايات

يحدد ابن تيمية موقف الكتاب والسنة من قضية الاقطاع السياسي بالقول أن الصلاحية السياسية ليست مربوطة ــ بالقرابات والأصول القبلية ــ بل مربوطة في الأساس بـ « استعمال الأصلح للولايات » دون أي اعتبار للقبيلة والعشيرة والقوم. ويقول ابن تيمية ان خيانة الله تعالى ورسوله ﷺ تكون عن طريق الانحراف عن هذا المنهج القويم في السلوك السياسي. ويذكر ابن تيمية حديث رسول الله ﷺ: « من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين »[٢٣٢].

---

(٢٣٢) ــ رواه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٩٢ و ٩٣ وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه. ط بيروت.

ويذكر ابن تيمية قول عمر: « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين »[٢٣٣] ويقول ابن تيمية ان على ولي الأمر « البحث عن المستحقين للولايات »[٢٣٤]:

« فان عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن (حقد) في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٢٣٥].

أولئك قومي فجئني بمثلهم.

---

(٢٣٣) ـــ في معناه حديث « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لايقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجه، قال الذهبي: منكر، قال الدراقطني: متروك ج ٤ ص ٩٣.

(٢٣٤) ـــ السياسة الشرعية ص ١٠.

(٢٣٥) ـــ السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٨ والآية من سورة الأنفال رقم ٢٠.

اليمين السياسي والدعوة الاسلامية

تفلوت إيمان الصحابة وتفاوت مواقفهم في نصرة الدين

حتى المجتمع الاسلامي الأول الذي تأسس بعد فتح مكة لم يكن الناس فيه على مستوى إيماني واحد بهذا الدين وبمقرراته العقيدية والتشريعية. كان هناك عدة طوائف وفئات من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وأصحاب بيعة الرضوان ومن أنفق قبل الفتح وقاتل ومن أنفق بعد الفتح وقاتل وكان هناك أيضاً فئة القاعدين المتخلفين وكذلك فئة المنافقين. كل فئة من هذه الفئات كانت تؤكد إيمانها بهذا الدين، لكن واقع الحال أن لكل فئة من هذه الفئات موقفاً متميزاً إزاء الدين. فموقف أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد وجبت لكم الجنة »(٢٣٦) نقول: إن موقف أهل بدر لاشك كان ذا مستوى إيماني أرفع من موقف الطلقاء الذي أسلموا بعد الفتح وأنفقوا بعد الفتح.

موقف أهل البيعة

وموقف أهل بيعة العقبة الذين قالوا لرسول الله ﷺ: اشترط

---

(٢٣٦) ــ فتح الباري ج ٨ ص ٣٠٧ ط مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٩ م.

لربك ولنفسك ماشئت. فقال لهم: «أشترط لربي أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لانقيل ولانستقيل[٢٣٧]. لاشك أن موقف هؤلاء ــ وكلهم مسلمون ــ أرفع من مستوى القاعدين الذين اكتفوا بإقامة الصلاة.

اختلاف الفئات في المجتمع المسلم

نحن إذن إزاء مجتمع مسلم لكن ينطبق عليه مقاييس التصنيف السياسي لسائر المجتمعات البشرية. فهناك الفئات الذي تحقق فيها التجرد والخلوص والاصرار على تحقيق التحول إلى الاسلام. وهناك في نفس المجتمع فئات تحقق فيها شكل وقشر الاسلام لكنها كانت ضد مضمون وجوهر العقيدة الاسلامية في العدل بين الناس والمساواة بينهم في الدماء والفروج والأموال.

تفاوت إيمان الذين أسلموا عام الفتح

الحقيقة أن الاتساع الأفقي السريع الذي حققه الاسلام بعد فتح مكة دفع أفواجاً كثيفة من الناس للدخول في هذا الدين. غير أن هذه الأفواج الكثيفة من الناس لم تكن تنتظمها درجة واحدة من الايمان. ففيهم من دخل هذا الدين مستسلماً لقوة المسلمين، وفيهم

---

(٧٣٧) ــ سيرة النبي لابن هشام ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ و ٥٠ و ٦٣ ط بيروت.

الكاره لهذا الدين المنافق وفيهم المؤلفة قلوبهم، وفيهم فئات أخرى لايعلمها إلا الله.

فئة المنافقين

ومن ضمن هذه الفئات التي كانت تتحرك في المجتمع الاسلامي الأول فئة المنافقين، وتلك كانت أخطر فئة. انضمت هذه الفئة لهذا الدين وهي كارهة له وعازمة على حربه في داخل حظيرته. معظم هؤلاء الذين نافقوا كانوا من أعيان مكة والمدينة والطائف والتجار وزعماء القبائل الذين قرروا إظهار الاسلام ولكنهم كانوا يبطنون للاسلام ولأهله كراهية شديدة. وسورة التوبة في القرآن عالجت موضوع هذه الفئة الخطيرة لقد فضحتهم سورة التوبة ووصفت أحوالهم النفسية والعملية.

* ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ﴾[٢٣٨].
* ﴿ استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾[٢٣٩].
* ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾[٢٤٠].
* ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره.... ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في

---

(٢٣٨) ـــ سورة التوبة الآية ٥٦.

(٢٣٩) ـــ سورة التوبة الآية ٨٠.

(٢٤٠) ـــ سورة التوبة الآية ٦١.

الدنيا ﴾[٢٤١].

هذا في المجتمع الاسلامي الأول كما تقرره السورة الفاضحة: سورة التوبة.

فئة اليمين السياسي في الوقت الحاضر

أما اليوم في المجتمع العربي الاسلامي المعاصر فنلحظ أن التصنيف السياسي للمجتمع يشمل ـــ فيما يشمل ـــ فئة تتسم بنفس مواصفات وتركيبات فئة المنافقين ألا وهي فئة اليمين السياسي التي تسيطر على معظم الرقعة العربية والاسلامية. هذه الفئة لاتفوت فرصة واحدة إلا لتطلع علينا بالأيمان المغلظة أنها تقف مع الاسلام ودعوة الاسلام، وفي نفس الوقت من يتابع سلوكها السياسي إزاء الدعوة والدعاة يلحظ العجب العجاب فهي تمكر وتتآمر على المسلمين الملتزمين وتوالي أعداء الله من قوى الاستعمار الخارجي. في تصوري أن موقف هذه الفئة ـــ فئة اليمين السياسي العالق بالوضع الراهن ـــ أخطر بكثير من مواقف سائر الفئات السياسية إزاء الاسلام ودعوته.

اليسار الدولي

فاليسار الدولي وتفريعاته المحلية العربية والاسلامية وبشتى مدارسه المتعددة قد حدد في أدبياته موقفه من الاسلام والأديان

---

(٢٤١) ـــ سورة التوبة الآيتان ٨٤ ـــ ٨٥.

السماوية كافة، ونستطيع على ضوء ذلك أن نحدد موقفنا منه المنهجي والمرحلي، لكن اليمين السياسي في تصوري يتخذ موقفاً أخطر إزاء الاسلام ودعوة الاسلام. إنه يرفع نفس الراية ولكن لتحقيق غاية مختلفة تماماً عن الغاية التي يهدف لتحقيقها الدعاة المخلصون للدعوة. إن اليمين السياسي يتخذ ــ لذلك ــ مواقف مشبوهة إزاء العمل الاسلامي وهو يهدف من خلالها لتحقيق التالي:

أهداف اليمين السياسي الانحراف بالعمل الاسلامي

١ ــ يهدف اليمين السياسي العميل للاستعمار الغربي الجديد أن ينحرف بالعمل الاسلامي عن مهمته المركزية وهي تأسيس الكيان السياسي للاسلام على شكل دولة ترتكز على القرآن والسنة. ولذلك يبذل اليمين السياسي جهوداً كثيفة في سبيل إغراق العمل الاسلامي في كل المجالات التي لن تسهم في بلورة رؤية إسلامية مستقلة.

تسخير العمل الاسلامي للتصدي لليسار الدولي

٢ ــ يريد اليمين السياسي أن يجعل من العمل الاسلامي ومؤسساته وصحفه ومجلاته ومنظماته الطلابية وسيلة لتكريس أوضاعه السياسية المنحرفة تحت شعار التصدي لليسار الدولي، لذلك يبذل اليمين السياسي المرتبط بالكتلة الغربية جهوداً كثيفة لتوظيف العمل الاسلامي في مهمة التصدي لليسار الدولي وتضخيم « مخاطره » دون أن يسمح للعمل الاسلامي أن يحقق مكاسب

فعلية وبعيدة الأثر لصالح مستقبل الاسلام كمنهج أممي مستقل عن العالم الرأسمالي.

تجريد العمل الاسلامي

٣ ــ يريد اليمين السياسي تجريد العمل الاسلامي من كل إمكانيات الاستمرار ومن كل إمكانيات الردع وذلك لتحقيق أكبر قدر ممكن من الانكشاف يسمح بضرب العمل الاسلامي في الوقت الذي تحدده مصلحة اليمين السياسي ومن يوجهونه خارج المنطقة.

لقد نجح اليمين السياسي ــ سليل المنافقين ــ لفترة غير قصيرة في توظيف الدعوة إلى الاسلام لتكريس أوضاعه السياسية المنحرفة في غفلة من الدعاة. لكن تباشير الافتضاح الجديد بدأت تشرق من جديد وصار المسلم المعاصر يقرأ سورة التوبة بمنظار عصره ويفهم من خلالها الطبيعة الملتوية لليمين السياسي العالق بالأوضاع الراهنة.

عبثاً أن جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار لأنهم أخطر على الاسلام من كل رايات الكفر المرفوعة اليوم في العالم: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾[٢٤٢].

---

(٢٤٢) ــ سورة النساء الآية ١٤٥.

اليمين السياسي مرة أخرى

تعارض الغايات بين الخط السياسي للحركة الإسلامية وبين الخط السياسي لليمن السياسي

مجدداً نثير هذه القضية الدقيقة الحساسة: قضية المنافقين في صدر الاسلام والمرادف العصري لهم: اليمين السياسي. ومجدداً نقول أنه مثلما تعارضت الغايات والولاءات بين القاعدة الاجتماعية الصلبة للمجتمع المسلم الأول في المدينة المنورة من جهة وفئة المنافقين من جهة أخرى نقول مثلما كان ذلك حتماً مقضياً في صدر الاسلام، ينبغي كذلك أن تتعارض اليوم الغايات والولاءات بين الخط السياسي للحركة الاسلامية من جهة وبين الخط السياسي الذي يسترشد به اليمين السياسي والذي هو المرادف العصري لفئة المنافقين.

غاية الحركة الاسلامية

نشدد على ذلك لسبب جوهري وهو أن غاية الحركة الاسلامية اليوم هي تحقيق التغيير الجذري في الأبنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعوب الاسلامية بما يتوافق مع مقررات الشرع الاسلامي في العدل المطلق بين الناس في الدماء والفروج والأموال

وذلك من شأنه أن يهيء المناخ الملائم لتأسيس دولة الاسلام الغائبة في هذا العصر.

غاية اليمين السياسي

بينما نجد أن غاية اليمين السياسي النهائية هي المحافظة على الوضع الراهن وتكريس ثوابته وتثبيت متغيراته ودحض وقهر وقمع وزجر وعزل كافة القوى الجذرية ـــ بما فيها الاسلامية وربما نقول بالأخص الاسلامية ـــ التي من شأن استمرارها هز ثقة عموم الناس بالواقع السياسي الذي تعيشه أقطار اليمين السياسي.

إذن: هناك خلاف جوهري في الغاية بين الحركة الاسلامية واليمين السياسي، فغاية وهدف الحركة الاسلامية تحقيق التغيير الجذري في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل الشعوب الاسلامية من أجل استئناف حياة إسلامية كاملة على مستوى الدولة والجيش والسوق والتعليم وغيره، وأما غاية وهدف اليمين السياسي فهي المحافظة على الوضع الراهن بكل أبنيته الاجتماعية المتهالكة وتبعيته الاقتصادية والسياسية للعالم الغربي ـــ سليل الصليبية الحاقدة.

اختلاف الخط السياسي منهجاً وموقفاً

إذا اتفقنا على ذلك ــ أي على اختلاف الغايات والأهداف لكل من الحركة الاسلامية واليمين السياسي وتعارضهما وتضاربهما ــ فيترتب عليه إذن ضرورة اختلاف الخط السياسي: منهجاً ومواقف. نعم، قد تتجمع ــ في مرحلة معينة ــ شبكة ظروف محددة تفرض على الحركة الأسلامية أن تنسجم في موقفها مع اليمين أو اليسار، لكن ينبغي أن يكون واضحاً أن ذلك الانسجام ــ والذي في ضوء المعطيات الحالية يستفيد منه اليمين السياسي أيما استفادة ــ مربوط ومرهون بسريان مفعول تلك الشبكة المعقدة من الظروف المحددة المذكورة. كذلك ينبغي أن يكون واضحاً التناقض الاستراتيجي والتميز العضوي للخط السياسي الاسلامي إذا ماقورن بخط اليمين السياسي ومراميه وتهالكه في شبكات التبعية الدولية.

اليمين السياسي يهاب الحركة الاسلامية:

إذا وضعنا أنفسنا بمحاذاة اليمين السياسي وفي موقعه، فقط لنستشف رؤاه إزاء هذه القضية، وجدنا أنه يهاب الحركة الاسلامية

أكثر من تخوفاته من الاتجاهات اليسارية وذلك ليس راجعاً لقوة أو حنكة أو متانة الحركة الاسلامية بقدر مايرجع إلى عامل جوهري واحد : وهو أن اليمين السياسي يدرك تمام الادراك أنه لايستطيع مهما فعل أن يقطع جذور الحركة الاسلامية في وسط الجمهور الاسلامي الذي يشكل القاعدة البشرية لأنظمة اليمين السياسي.

عزل اليمين السياسي للاتجاهات اليسارية:

لقد نجح اليمين السياسي خلال عقد من الزمان بعزل الاتجاهات اليسارية عن الفعالية الجماهيرية من خلال المناشدة الصاخبة للحس الديني لدى الجماهير وما يحمل ذلك من نتائج سلبية بالنسبة لليسار في عمومه.

عدم إمكانية عزل اليمين السياسي للحركة الاسلامية لعدة أسباب:

غير أن اليمين السياسي لايستطيع أن يعزل الحركة الاسلامية عن جماهيرها بنفس الاسلوب لأسباب واضحة، ولو فعل ذلك لما حصد إلا المر والعلقم. ولأن اليمين السياسي لايستطيع أن يعزل الحركة الاسلامية عن جماهيرها، ولأنه يدرك تشوق الجماهير الاسلامية لاستئناف حياة إسلامية كاملة، بات يعتني كثيراً ـــ مثل فئة المنافقين التي يتحدر تاريخياً منها ـــ بضرب التماسك النفسي والجهوي والفكري والفقهي للحركة الاسلامية من خلال تكريس أجواء الاختلاف والشك في أوساط العاملين للاسلام. فاليمين السياسي يبث عملاءه في كل مكان لهذه الغاية، حتى أنك لتجدهم غير

مستعدين لأي اتفاق على أي قضية مهما كانت فرعية وذلك للابقاء على روح الخلاف في أوساط العاملين للاسلام. ثم إنه يهتم بأي قضية خلافية ليجذرها ويسعى لتضخيمها ويستفتي بها ويحرص على ذلك، مع أنه في نفس الوقت يقمع أي فتوى ــ مهما كانت مؤصلة ــ لاتتفق مع وضعياته السياسية. المشكلة الخطيرة أنه ضمن حظيرة الايمان تسترخي النفوس لأجواء أحياناً تفتقر إلى اليقظة والفطانة لذلك يستغل اليمين السياسي هذه الناحية السلبية فيبدأ يبث إرساله على قنوات عديدة وتتكرر نفس المشكلة التاريخية التي من أجلها نزلت الآية القرآنية: ﴿ يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾[243] يقول القرطبي مفسراً ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم. أما قتادة فيقول: وفيكم من يقبل منهم قولهم ويعطيهم[244].

وكل ذلك حصل ويحصل ونسأل الله منهم العافية ونتمنى على اخواننا في الله اليقظة.

ضرورة دراسة سورة التوبة من محتواها السياسي:

كجزء من الارشاد السياسي الذي يجب أن يتلقاه المسلم المعاصر ينبغي دراسة المحتوى السياسي لسورة التوبة التي عالجت موضوع فئة من أخطر الفئات السياسية في المجتمع المكي والمدني

---

(٢٤٣) سورة التوبة الآية ٤٧.

(٢٤٤) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٩٩٦.

والعصري الحالي. إن تجربة الاسلام ـــ في صدر تاريخه وعقب ذلك ـــ مع فئة المنافقين الذين دخلوا في هذا الدين وهم له ولأهله كارهون وماترتب على ذلك من نتائج سياسية خطيرة: حديث الافك، مسجد الضرار، حروب الردة، وكل محاولات الانقلاب على مقررات هذا الدين في تشريعه السياسي والاقتصادي خاصة، أقول كل ذلك جدير بالدراسة وعلى ضوء تلك التجربة دعونا نحدد موقف الحركة الاسلامية من اليمين السياسي العصري الذي لايختلف ـــ في الجوهر ـــ عن عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وكهفه في مدينة رسول الله ﷺ.

الاطعام والامن في السياسة الشرعية

يقوم التشريع الاجتماعي في الاسلام على مبدأ التكافل. وليس المقصود بمبدأ التكافل أن الاسلام دعا الناس إليه ثم تركهم دون أن يحدد قنوات التكافل ويلزم المسلمين بها.

معنى التكافل:

والمقصود بالتكافل أن يكون آحاد الشعب في كفالة الجماعة، وأن يكون بناء الجماعة وسلامته في كفالة الآحاد والأفراد.

بعض الحقوق الهامة في دولة الاسلام الغائبة:

التكافل الاجتماعي والملزم في التشريع الاسلامي هو في مغزاه ومؤداه أن يشعر كل فرد في المجتمع بأن عليه واجبات تجاه المجتمع عليه أداؤها، وأن للفرد حقوقاً في هذا المجتمع يجب على القوامين عليه أن يوصلوا الحقوق لأهلها دون أن يريقوا ماء الوجوه. ومن الحقوق الهامة للأفراد في ظل الدولة الاسلام الغائبة: حق الأمن، وحق الطعام، وحق السكن وحرمته، وحق العمل.

ومن ألطف الكتابات الاسلامية حول هذا الموضوع ما كتبه ابن حزم الاندلسي في كتابه الشهير: (المحلى):

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، يجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة »[٢٤٥].

ويقول ابن حزم في نفس الكتاب الشهير (المحلى): « إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر مايكفل فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا أو جهدوا فبمنع من الأغنياء وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم »[٢٤٦].

رأي ابن حزم فيمن حرم فضل الماء والطعام:

ويعطي ابن حزم كل من جاع وعطش حق قتال المسلمين، بل قتل من لديه فضل من طعام وماء يحبسه في داره ويمنعه عن باقي الناس المحتاجين إليه:

« من عطش فخاف فرض عليه أن يأخذ الماء من حيث وجده وأن يقاتل عليه ولايحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو ذمي لأنه فرض على صاحب الطعام إطعام الجائع. فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل الجائع

---

(٢٤٥) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ١٥٦.

(٢٤٦) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ١٥٨.

فعلى قاتله القود (القصاص)، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقاً وهو طائفة باغية والله يقول: ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾[٢٤٧] ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانع الزكاة »[٢٤٨].

إيواء من لاسكن له:

كما ورد في الفقه الاسلامي إذا كان هناك من لا يجد مأوى في حين أن بعضاً من الناس يملكون سكناً يزيد عن حاجتهم فعلى الحاكم إسكان هؤلاء جبراً على المالك[٢٤٩].

تحقيق التكافل بالزكاة:

ومن ضمن التشريعات الاسلامية في تحقيق التكافل الاجتماعي الملزم هو تشريع الزكاة وهي الركن الثالث من أركان الاسلام. والزكاة حق يوجب الاسلام أن تحصله وتجمعه السلطة السياسية وتوزعه على الفئات الثمانية التي حددها القرآن الكريم من الفقراء والمساكين وغيرهم. وإذا امتنع الأغنياء في المجتمع عن إخراجها كانوا آثمين ومن حق المسلمين أن يشهروا السلاح في وجوههم ويقاتلوهم وماحروب الردة بين خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه وقبائل العرب

---

(٢٤٧) ــ سورة الحجرات الآية ٩.

(٢٤٨) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ٢٣٠ ط مصر سنة ١٩٦٨ م.

(٢٤٩) ــ الحسبة في الاسلام لابن تيمية ص ٣٧ طبعة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.

إلا حول هذا الأمر، فبعد وفاة الرسول ﷺ أرادوا منع الزكاة فقاتلهم أبو بكر ونصره الله عليهم.

هل في المال حق سوى الزكاة

فرض الضرائب لسد حاجات الناس في حالة عدم كفاية الزكوات:

نعم، يقرر الفقهاء أنه إذا لم تف الزكوات وما في بيت مال المسلمين بحاجات الناس ولم تقم الصدقات بسد هذا الواجب كان للدولة الاسلامية أن تفرض من الضرائب مايسد هذا الواجب ومايقوم بحاجات الناس. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لازاد له. قال: فذكر من أصناف المال ماذكر، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل »[٢٥٠]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: « في مالك حق سوى الزكاة »[٢٥١]. وصح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة رضي الله عنهم أن زادهم فني فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم في مزودين، وجعل يقوتهم إياها على السواء[٢٥٢]. فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضوان الله عليهم ولامخالف له

---

(٢٥٠) ــ رواه مسلم ج ١ ص ١٣٥٤ حديث ١٧٢٨.

(٢٥١) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ٢٢٨.

(٢٥٢) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ٢٢٧ و ٢٢٩.

منهم، وصح عن الشعبي ومجاهد وطاوس وغيرهم وكلهم يقول: « في المال حق سوى الزكاة »[٢٥٣].

نتيجة تعطيل أحكام الاسلام:

إن ظواهر الفقر والحرمان والشظف التي تعيشها جماهير الاسلام في أوطانها هي نتيجة طبيعية لتعطيل أحكام الاسلام التي استهدفت في الأساس تفتيت الثروات لتصل إلى أكبر قاعدة إنسانية ممكنة. وإن هذا التكديس والخزن والكنز الذي تمارسه الطبقات الثرية يتعارض بشكل سافر مع أحكام وتشريعات الاسلام الاقتصادية ذات النزعة الجماعية والتي تتضارب مع الاتجاه الفردي في حبس المال والطعام وغيرها من الخيرات. وإن الاسلام قد عني بهذه القضية: قضية الأطعام والأمن والاسكان بما يحقق مصلحة العموم لا الخصوص إلى درجة أن جعلها قضية تمس العقيدة في الله وقد تؤدي بمن ينحرف عنها إلى نار جهنم والعياذ بالله: ﴿ ماسلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾[٢٥٤].

---

(٢٥٣) ــ فقه السنة لسيد سابق ج ١ ص ٤٢١.

(٢٥٤) ــ سورة المدثر الآيات ٤٢ ــ ٤٤.

العمل الاسلامي وحاجته إلى رؤية واضحة في مجال العلاقات الشعبية

جملة مسلمات علينا أن نعيها ونعي ماينفرز منها حق الوعي:

العلاقة بين الواقع وبين شخصية وتوجه العمل الاسلامي:

١ ـــ العمل الاسلامي ـــ باعتباره عملاً عاماً ـــ لايتحرك في فراغ، ثمة سياق سياسي واجتماعي واقتصادي هو بمثابة البحر الذي يسبح فيه الاسلاميون. ولهذا السياق مواصفات وأطر ومناخ ونكهة وشبكة من العوامل المتناغمة تشكل مانتفق على تسميته بـ: الواقع. والعمل الاسلامي ـــ كعمل عام ـــ يتحرك من خلال هذا الواقع لامن خارجه بالطبع. ولهذا نستطيع أن نقول بأن الواقع ـــ كسياق تتفاعل فيه عدة قوى سياسية واجتماعية واقتصادية ـــ هو عامل أساسي ضمن عدة عوامل تحدد شخصية توجّه العمل الاسلامي المعاصر. إذن المسلمة الأولى تعني وترتكز على هذه العلاقة الأوزوموزية التفاعلية بين الواقع من جهة وبين شخصية وتوجه العمل الإسلامي من جهة أخرى.

استمرار العلاقات الشعبية في تاريخ العمل الاسلامي المعاصر:

٢ ـــ المسلمة الثانية مستلة من الأولى ومرتبطة بها وهي لأن العمل الاسلامي لايتحرك في فراغ ويتعامل مع مجتمع قائم وناجز، عليه إذن فله ـــ أي العمل الاسلامي ـــ شبكة من العلاقات الشعبية العامة التي تنامت بفعل التبادل الضروري مع الناس عمومهم وخصوصهم. بعبارة أخرى نقول: إن شبكة العلاقات الشعبية العامة لم تنشأ بالاختيار بل بالحتم وهي لذلك مستمرة بالحتم وكانت موجودة في تاريخ العمل الاسلامي المعاصر بحكم الحتم ولاشك لحظة بحتمية استمرارها في المستقبل. وإن أهم مسوغ لشبكة العلاقات الشعبية العامة هو ـــ شعبية العمل الاسلامي ـــ لامن حيث زخم التفاعل الشعبي معه بل من حيث أهدافه في عموم الناس.

وجود تيارات مختلفة راسخة في مجتمعاتنا لها قواعدها الشعبية:

٣ ـــ الثالثة أنه بات من الضروري أن ننبه المشتغلين في العمل الاسلامي بوجود تيارات اجتماعية وسياسية راسخة في مجتمعاتنا لاتنتمي للاسلام وأن هذه التيارات لها قواعدها الشعبية وتستمد شرعيتها السياسية والاجتماعية من قناعة قواعدها الشعبية بها واستمرارية تفاعلها مع قضايا عموم الناس. ومن المهم أن يعي المشتغلون في العمل الاسلامي أن هذه التيارات غير الاسلامية ـــ أو بتعبير أدق غير الملتزمة بالاسلام كدليل نظري تعود إليه وكمنهج تاريخي لحركتها تسترشد به ـــ تنظر لنفسها كما ينظر الاسلاميون للعمل الاسلامي على أنه الاسلوب الأمثل لانتشال الأمة من هزيمتها

السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. هذه التيارات لها رؤيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولديها أيضاً قدرة لابأس بها في عمليات الاستدعاء السياسي وتحريك المحيط الاجتماعي والاستنصار به، كما أن لها تاريخاً وجذوراً ورموزاً تتمتع بمصداقية وتماسك وحضور. هذه حقيقة باردة ويابسة علينا أن نعيها حق الوعي وأن نتعامل معها لا أن نتغاضى عنها وأن نتمثلها ونهضمها دون وجل. الأهم من كل ذلك أن هذه التيارات، شعبية وليستَ سلطوية، وأنها تلقى قدراً لا بأس به من العزل والزجر والكبح والمحنة، ولاشك أن هذا البعد المأساوي يعرف الاسلاميون — على الأخص — دلالاته السياسية.

إذا وضعنا في الاعتبار المسلمات المرصوصة آنفاً، يصبح — في تصوري — من المهم أن نستنبط منها بعض الرؤى التي قد تسهم في بلورة نظرية للعمل الاسلامي في مجال علاقاته الشعبية العامة ونقول في هذا الصدد مايلي:

١ — حيث أن العمل الاسلامي — كعمل عام — لايتحرك في فراغ، بل ضمن سياق سياسي واجتماعي واقتصادي اتفقنا على وسمه بـ: الواقع، وأن ثمة علاقة تفاعلية بين هذا الواقع والعمل الاسلامي، يصبح من المصلحة العملية للاسلاميين أن تصب هذه العلاقة التفاعلية بين الواقع والعمل الاسلامي في مصلحة الأخير لا الأول، بتعبير صريح أقول إن المتمعن في هذا الأمر وفي تلك العلاقة يلاحظ أن الواقع — وهو سياق سياسي يميني رجعي استطاع أن

يحقق مكاسب واضحة من خلال علاقته بالعمل الاسلامي دون أن يتمكن الأخير من تجيير هذه العلاقة لمصلحته هو على مستوى العلاقات المؤسسية في المجتمع الأوسع.

مواصفات الواقع:

نعم إن الواقع أتاح للعمل الاسلامي انتشاراً أفقياً واسعاً، لكن دون أن يسمح للعمل الإسلامي بتجاوز وتخطي الأعراف القبلية واليمينية السياسية وقوى التخلف الاجتماعي العالقة بالأوضاع الراهنة. واستطاع الواقع ـــ كسياق حددنا مواصفاته في الأسطر السابقة ـــ أن يعزل العمل الاسلامي عن التفاعل مع التيارات الشعبية الأخرى لدرجة خطيرة باتت تهدد استقلالية ومستقبلية العمل الاسلامي. فالمطلوب إذن على هذا الصعيد أن تكون علاقة العمل الاسلامي بالواقع المحيط تصب في مصلحة تكريس الأهداف القريبة والبعيدة للعمل الاسلامي لاتكريس أهداف اليمين السياسي وتبعيته السياسية والاقتصادية للغرب الرأسمالي ـــ سليل الصليبية الحاقدة التي تتبدى هذه الأيام بأبشع صورها في حصار بيروت.

أهمية تحالف العمل الإسلامي مع القاعدة الشعبية:

٢ ـــ حيث أن العمل الإسلامي شبكة من العلاقات الشعبية العامة تنامت بفعل التبادل الضروري مع الناس عمومهم وخصوصهم، يصبح من المصلحة العملية للإسلاميين أن تكون هذه الشبكة من الاتساع والانفتاح والمرونة بحيث يتمكن من

الاستنصار بها والتحالف مع أطرافها في أوقات الضيق السياسي القادمة لا محالة. مهم جدا أن تكون للعمل الإسلامي علاقة شعبية متسعة حتى مع الأطراف غير الإسلامية تكون ضمن إطار التعاون على ما هو متفق عليه ويحقق مصلحة عامة.

الهدف من عزل العمل الإسلامي:

إن عملية عزل العمل الإسلامي ضمن دوائر إجتماعية محددة لا تتمتع بفاعلية سياسية ــ رغم كثرتها العددية ــ الهدف منه استفراغ الزخم الإسلامي دون عائد سياسي وبالتالي الاستفراد بالعمل الإسلامي وتصفيته حين تنشأ وتتوفر الظروف الملائمة لذلك.

التيارات الشعبية الراسخة ومقدرتها على الحضور السياسي المباشر:

٣ ــ حيث أن هناك تيارات شعبية راسخة تتمتع بقدر من الفاعلية السياسية وتلقى أحياناً قدراً من الزجر والكبح والعزل ولديها مقدرة لابأس بها على الاستمرار والحضور السياسي المباشر يصبح ــ في تصوري ــ أن المصلحة العملية للإسلاميين تقتضي عدم التغاضي عن هذه الحقيقة وعدم الالتفاف حولها. أزيد فأقول أن المصلحة العملية للإسلاميين تقتضي فتح قناة للحوار والتبادل في الرأي مع هذه التيارات وفق منظور جبهوي واسع ينقل الحاضر الجامد إلى مرحلة من الحيوية السياسية.

فوائد الحوار المنضبط :

في تصوري أن هذا الحوار المنضبط في إطار المنظور الجبهوي سيكون له فوائد كثيرة :

أولها : تجاوز مرحلة التشرذم السياسي الحاصل في الساحة والذي لا يستفيد منه سوى اليمين السياسي الرجعي الطفيلي .

ثانيها : التلاقح الفكري والحركي بين أطراف الحوار وهو أمر مفيد للجميع على المدى البعيد .

ثالثها : علاقات مؤسسية بين كافة الاتجاهات ، علاقات خالية من الحساسيات الشخصية التي من شأن الحوار أن يذيبها والتي طالما كانت سببا خلفياً لكثير من الأزمات السياسية الشعبية في العالم العربي .

إن العمل الإسلامي باعتباره عملا عاما لا يخلو من التوجه السياسي بحاجة ماسة إلى رؤية واضحة في مجال علاقاته الشعبية ، وأن شبكة علاقاته الشعبية الحالية بحاجة ماسة لمراجعة كاملة تضع في الاعتبار مستقبل العمل الإسلامي واستقلاله . والله أعلم .

أهمية الفعالية السياسية للعمل الإسلامي

توظيف الاندفاع العام نحو الإسلام سياسياً واجتماعياً واقتصادياً:

هذا الاندفاع العام نحو الإسلام إذا لم يتم توظيفه سياسياً لصالح قضية الإسلام الأممي المستقبلي فلن يحرث منه المسلمون إلا العرق والدم. هذا التزاحم في المساجد وهذا الاقبال على الكتاب الإسلامي وهذا القلق المبارك على الدعوة وهذا الدعم الجماهيري ـــ المادي والمعنوي ـــ لحركة الإسلام، كل هذا إذا لم تضبطه أهداف عامة واضحة وصريحة ومعلنة ومؤصلة، وإذا لم يتمحور حول قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية تعيشها الجماهير، قضايا تكتوي بها الجماهير تكون مدخلا مناسباً إليها، حوله وبالقرب منه يتم الطرح الإسلامي، أقول إذا لم يحدث هذا فإننا نضيع فرصة تاريخية قد لا تتكرر هيَّأها الله لدعوته ولحزبه.

الانتشار الأفقي للإسلام لا يعني أن الإسلام يتقدم:

إن الانتشار الأفقي للإسلام بين الناس لا يعني على الإطلاق أن الإسلام يتقدم، كل ما يعنيه ذلك أن هناك قابليات جيّدة لدى الناس.

وهو مخزون في البرميل إذ لا قيمة ذاتية فيه بل إن قيمته تكمن في أن يصير وقوداً وطاقة لحركة هادفة منتجة ومثمرة، عندها وعندها فقط يصبح للنفط قيمة. وهذه القابليات الجيدة لدى الناس إزاء الإسلام والانعطاف نحو حزبه هي أيضاً ــ مثل النفط ــ تنتظر من لديه عبقرية لتوظيفها في حركة هادفة منتجة ومثمرة. أما الاستسلام والاسترخاء الحاصل لدى كثير من العاملين والذي يبرر نفسه بأن الإسلام بخير والناس بدأت تميل نحو الإسلام، فهذا لن يطول كثيراً بل قد ينقلب على أصحابه بين ليلة وضحاها، والأيام ــ كما علمنا القرآن ــ دول.

جعل الاندفاع نحو الإسلام ذا فعالية سياسية:

في تصوري أن الوسيلة الناجعة لتثمير هذا الاندفاع نحو الإسلام لدى الجماهير أن نجعله ذا فعالية سياسية. فالعمل الإسلامي لا ينبغي أن يتحول إلى عمل ثقافي أو خيري رغم أن الثقافة والعمل الخيري جزء لا يتجزأ منه، والعمل الإسلامي لا يجب أن ينحصر في إطار تذكير الناس بالآخرة، رغم أن الإيمان بها وبهولها وبالحساب والجزاء والجنة والنار والصراط وغيره جزء أساسي في عقيدتنا. لكي يكون العمل الإسلامي عملاً جماهيرياً، تحتضنه الجماهير وتذود عنه وعن أصحابه، لا بد له أولا، أن يحتضن الجماهير ويذود عنها ويعيش قضاياها، المدخل للجماهير هو من خلال عمل سياسي جماهيري يصير له الإسلام كالوعاء، لا بد أن

يجتهد العاملون في الحقل الإسلامي لاقناع الجماهير بأن الإسلام قادر على أن يقدم الحلول لمشكلاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. لا بد أن تعي الجماهير أن الإسلام فعل ذلك تاريخيا وأنه قادر على أن يكرر التجربة فور استكمال المقادير وتقنيات التحول إليه. وأخيرا لا بد أن تعي الجماهير دورها وأهميته، بل خطورة شأنه، في كل ذلك، وأن يكف النخبويون عن تجاهلهم وتغاضيهم لهذه الحقيقة.

التفاعل مع المواقف:

الناس عمومهم وخصوصهم لا يتفاعلون مع النظريات بقدر ما يتفاعلون مع المواقف. روعة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنهم كانوا أصحاب مواقف لا أصحاب نظريات، بلغة عصرية كانوا أصحاب فعالية سياسية مباشرة وصريحة ومفهومة. لم يتكلموا فقط ضد الظلم والطغيان، بل وقفوا إلى جانب المظلومين والمضطهدين. لم يكتبوا الكتب عن العدالة الاجتماعية بل وقفوا موقفا حازما صلباً إزاء من يهددها ولا يكترث بها، هذه الفعالية التاريخية التي تمتع بها رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متأتية من قدرتهم على تحديد موقفهم ــ بحزم ــ من قضايا الناس المطروحة لذلك آمن الناس بهم وأحبوهم واحتضنوهم وتابعوهم ورضوا بهم قادة وزعماء ومعلمين. ولا أقول جديدا إذا ذكرت ــ والذكرى تنفع المؤمنين ــ بسيرة الرسل مع الشعوب التي أرسلوا إليها.

القضايا التي يئن منها العالم الإسلامي:

العالم الإسلامي يئن اليوم من ثلاث قضايا:

١ ـــ الطغيان السياسي.

٢ ـــ سوء توزيع الثروة.

٣ ـــ التحلل الاجتماعي.

هذه القضايا الثلاث متشابكة ومرتبطة بعضها ببعض. فالطغيان السياسي لا يمكن أن يستمر إلا من خلال تكريس سوء توزيع الثروة والتفاوت المعيشي الهائل بين الناس. وسوء توزيع الثروة وكل ما يحمله من دلالات سياسية ويهيئه من مناخ اجتماعي مريض هو بدوره يكون حافزا رئيسيا لإشاعة التحلل الاجتماعي. ولا يمكن لأي مجتمع أن يحل واحدة من هذه القضايا الثلاث دون أن يمس القضيتين الباقيتين. لذلك لا بد من مواجهة هذه القضايا الثلاث والمباشرة في معالجتها عبر مبادرة واحدة وفي وقت واحد.

العمل الإسلامي طور قدراته لمعالجة قضية التحلل الاجتماعي دون معالجة السياق السياسي والاقتصادي:

ومن الملاحظ أن العمل الإسلامي ـــ في صورته الحالية ـــ قد طور قدراته ووظف الكثير من وقته وطاقته لمعالجة قضية التحلل الاجتماعي دون أن يعالج سياقها السياسي والاقتصادي الذي يتبدى على شكل نظام يجنح نحو الطغيان السياسي ويقوم وضعه الاقتصادي على معادلة غير متوازنة في توزيع الثروة. وبكل وضوح نقول أن كل

الجهود الحالية المبذولة في سبيل انتشال المجتمعات « الإسلامية » من تحللها الاجتماعي لن تثمر إذا لم يباشر العمل الإسلامي في المهمة الحساسة والدقيقة وهي مواجهة مشكلة الطغيان السياسي ومشكلة سوء توزيع الثروة الحاصل بشكل مبتذل في العالم الإسلامي. يجب أن يكون موقف العمل الإسلامي موقفاً كلياً شاملا مستمداً من كلية وشمول الإسلام. هذا الموقف الكلي الشامل الذي نأمل أن يباشر به العمل الإسلامي إزاء قضايا العمل الإسلامي وجماهيره، هو المفتاح لتطوير فعالية العمل الإسلامي مستقبلا. بالطبع لكي يتحقق هذا الموقف الكلي الشامل لا بد من مراجعة شاملة لأمور كثيرة منها: طبيعة العلاقات السياسية للعمل الإسلامي محلياً وعربياً ودولياً (يدخل ضمن ذلك بالطبع العلاقات الشعبية)، كذلك لا بد من بلورة الفقه ومن تهيئة الكادر الحركي القادر على استيعاب المهمات الجديدة.

الالتفاف حول قضايا مصيرية — كالثلاثة التي ذكرنا — هو مفتاح العمل الإسلامي نحو الفعالية السياسية المرتجاة التي من شأنها أن تفتح آفاقاً واسعة لعمل مستقبلي كبير. ونحن ندرك أن الطريق شائك، غير أننا ندرك أيضاً أن تلك طبيعة طريق الدعوة إلى الله في كل العصور. والله أعلم وهو ولينا نعم المولى ونعم النصير.



القرآن كتاب حركة واعية لمستلزمات المراحل السياسية

أهداف القرآن ككتاب حركة:

الذي يدرس القرآن من حيث هو كتاب حركة، يدرك إلى أي مدى ركّز في سوره على بناء الإنسان الصالح لكل العصور. والذي يجول مع القرآن ـــ عبر المراحل التاريخية التي مرت به الجماعة الإسلامية الأولى ـــ يدرك إلى أي مدى ركّز في سوره على بناء حركة إسلامية ناشطة ويقظة وواعية لقضية التطور السياسي ومستلزماته. ويتوضح لمن يدرس القرآن من حيث هو كتاب حركة أنه يهدف لبناء إنسان فعال مؤثر مثابر دؤوب يقظ يستوعب التحول التاريخي من مرحلة إلى أخرى والتكيف السياسي من وضع لآخر ويعيش في قلب الأحداث لا على هامشها وعلى وعي تام بطبيعة حركة التاريخ والمجتمعات ويتزود ويتحصن بتصور صحيح لهذا الكون ومجرياته، وببناء نفسي متماسك يصعب لغير نداء الله أن يخترقه. كما يتوضح لدارس القرآن من حيث هو كتاب حركة أنه يهدف لبناء حركة تتفاعل مع التاريخ، تارة تصنعه، وأخرى تسترشد به، وفي كل ذلك

هي حركة عصرية تعيش العصر وتتفاعل مع المرحلة من حيث روحها وقضاياها ومنعرجاتها. وهي حركة واقعية لا تتعامل مع الطوباوية لا من قريب ولا من بعيد فهي تعرف أن الصراع والصدام والحرب والقتال وتضارب المصالح بين الناس، حقائق مركوزة في كينونة المجتمعات البشرية. مثلها مثل ضرورة التعايش والتعاهد والتهادن والتبادل والمقايضة.

إذن يريد القرآن أن يبني إنساناً وأن يبني حركة لديهما قدرة على استيعاب وفهم كل هذا والاستعداد له ورفع الكفاءة الحركية لتوظيفه لصالح قضية الإسلام عبر كل المراحل السياسية. من أجل ذلك يكرر الله سبحانه وتعالى على سمع المؤمن وقلبه وعقله ولبه حقائق أساسية لفتح مغاليق الصراع الإنساني فوق هذا الكوكب بحيث تتحصل لدى المؤمن جملة مدركات تعينه على أن يصير إنساناً جديراً بحمل لواء الدعوة وجديراً بمكان في صفوفها.

ـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾[٢٥٥].

ـ ﴿ **ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** ﴾[٢٥٦].

ـ ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾[٢٥٧].

---

(٢٥٥) سورة النساء الآية ٧١.

(٢٥٦) سورة النساء الآية ١٠٢.

(٢٥٧) سورة البقرة الآية ٢٥١.

ـ ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾[٢٥٨].
ـ ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[٢٥٩].
ـ ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[٢٦٠].

فالسلاح والحذر وإعداد للعدو مع الاستعداد للهدنة وتقلب الأيام، يوم لك وآخر عليك، كل ذلك حقائق ينبغي أن تتشكل شخصية المؤمن وتربيته لاستيعابها وتوظيفها لصالح قضية الإسلام عبر كل المراحل السياسية.

مقارنة بين سورتي محمد والفتح:

مقارنة بسيطة بين سورة محمد وسورة الفتح توضح ما نرمي إليه. فسورة محمد مدنية وآياتها ٣٨ وموضوعها: الجهاد في سبيل الله ونزلت في السنة الثالثة من الهجرة وهي مرحلة من مراحل الدعوة، والذي يقرأ السورة ويتنسم جوها ويعيش صورها لا يمكن أن يتوقع نزول سورة الفتح بعدها بثلاث سنين وهي سورة نزلت في السنة السادسة من الهجرة لتعبر بالجماعة الإسلامية خلال مرحلة أخرى ذات طبيعة مغايرة أي طبيعة صلح الحديبية وما استلزمه من عمل سياسي وتخطيط لانتشار الإسلام في مكة وغيرها من القرى ومحاولة تأسيس علاقات ممتدة مع الأوساط القبلية والاستنصار بها

---

(٢٥٨) سورة آل عمران الآية ١٤٠.
(٢٥٩) سورة الأنفال الآية ٦٠.
(٢٦٠) سورة الأنفال الآية ٦١.

عبر شبكة من التحالفات . سورة محمد هي عبارة عن إعلان حرب من الله والجماعة الإسلامية على الذين كفروا، لذلك جاءت عباراتها بتَّارة فصَّالة :

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ۝ سيهديهم ويصلح بالهم ۝ ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم ۝ ﴾[٢٦١] .

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾[٢٦٢] .

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٢٦٣] .

عرض لجو سورة محمد :

جو السورة كلها تحريض على القتال وتحقير للكافرين ودعوة بل أمر رباني بالإثخان والغلظة عليهم وشدة التقتيل فيهم وحض المسلمين على الثبات في القتال وعدم الدعوة إلى السلم أو الهدنة

---

(٢٦١) سورة محمد الآيات ٤ـــ٦ .

(٢٦٢) سورة محمد الآية ٣٥ .

(٢٦٣) سورة محمد الآية ٣٨ .

﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾(٢٦٤)، الهدف من القتال والاثخان فيه تحطيم قوة العدو وكسر شوكته. ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾(٢٦٥). يقول سيد قطب رحمه الله: (وهي لفتة عنيفة مروعة فيها ضجة وفرقعة وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم وكل مالهم فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة، وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته في انقضاضه وتحطمه)(٢٦٦). ثم يؤكد الله تعالى للمؤمنين ﴿ **وأنتم الأعلون ولن يتركم أعمالكم** ﴾(٢٦٧) ويحذر الله الجماعة الإسلامية الأولى من أي تردد أو وجل أو زغل أو دخل ويقول لهم بصريح العبارة ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾(٢٦٨).

هذه السورة ــ سورة محمد نزلت في السنة الثالثة من الهجرة وهي مرحلة قتال وجهاد وتمييز وتثبيت لدعائم الإيمان من خلال السلاح والدم والغبار والشهداء. وكانت مرحلة.

---

(٢٦٤) سورة محمد الآية ٣٥.

(٢٦٥) سورة محمد الآية ١٠.

(٢٦٦) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٦٠ الطبعة الأولى.

(٢٦٧) سورة محمد الآية ٣٥.

(٢٦٨) سورة محمد الآية ٣٨.

سورة الفتح تعبير عن مرحلة سياسية تمر بها الجماعة الإسلامية:

وبعد أن اشتد عود الجماعة الإسلامية الأولى وفعلت آيات الكتاب بها ما فعلت وبعد ثلاث سنوات من العمل العسكري ضد قريش وحلفائها وبالذات في السنة السادسة من الهجرة نزلت سورة الفتح وهي تعبير عن مرحلة أخرى سياسية تمر بها الجماعة الإسلامية الأولى، مرحلة ذات طبيعة خاصة تستلزم تصعيد العمل السياسي وتهدئة العمل العسكري ضد قريش وحلفائها.

سمات سورة الفتح:

حتى ألفاظ وصور هذه السورة أهدأ بكثير من سورة محمد، فهي تعبير عن مرحلة تتطلب شيء من الهدوء والعمل الهادئ والتخطيط السياسي. فقد وافق رسول الله ﷺ في ذلك العام على صلح الحديبية.

عقد صلح الحديبية:

(**هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده إليه ومن** جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة. وأنه لا إسلال ولا إغلال وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد

قريش وعهدهم دخل فيه وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)[٢٦٩].

فوائد الصلح:

واضح من خلال نص الصلح وملابساته أننا في إزاء مرحلة جديدة دقيقة يغلب عليها العمل السياسي رغم أن بنود الصلح استفزت القاعدة الصلبة من المؤمنين ومع هذا قبلوا وفاءوا إلى الرضى واليقين والصلة المباشرة بروح رسول الله ﷺ. وفعلا كان صلح الحديبية في واقع الحال فتحا في الدعوة وفتحا في الأرض وفتحا في الموقف وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾[٢٧٠]. نعم كان فتحا في الدعوة، يقول الزهري: (فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا ودخل فيه لقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[٢٧١]. قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام

---

(٢٦٩) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ٣ ص ٣٨٢.

(٢٧٠) سورة الفتح الآية ١.

(٢٧١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٢.

فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف وكان ممن أسلم خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص، وكان صلح الحديبية فتحا في الأرض، فقد أمن المسلمون شر قريش فاتجه رسول الله ﷺ إلى تطهير الجزيرة العربية من بقايا اليهود وفتح المسلمون خيبر، وغنموا منها غنائم ضخمة. وكان صلح الحديبية فتحا في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها(٢٧٢).

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ۝ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم ۝ ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ۝ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً ۝ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ۝ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ۝ ﴾(٢٧٣).

انتقل بنا القرآن ـــ من خلال سورة الفتح ومحمد ـــ عبر مرحلتين مرت بهما الجماعة الإسلامية مرحلة فيها أتون ونار وحريق وغبار الجهاد وأما الأخرى فكانت عبر صقيع العمل السياسي.

---

(٢٧٢) المرجع السابق.

(٢٧٣) سورة الفتح الآيات ١٨ـــ٢٤.

ومستلزماته. الروعة في كل هذا أن الجماعة الإسلامية الأولى حققت نجاحات طيبة في المرحلتين: مرحلة الجهاد ومرحلة العمل السياسي (صلح الحديبية).

يجب على الجماعة الإسلامية أن تتكيف للمرحلة القادمة:

هنا لا بد أن نقول بأن الملفت للنظر هو مقدرة الجماعة الإسلامية على التكيف السياسي مع المراحل وتثمير المراحل المستجدة لصالح قضية الإسلام ولا شك أن خلف هذا وذاك منهاج تربوي متكامل ـ كتكامل تجربتي الجهاد والعمل السياسي التي مرت بهما الجماعة الإسلامية الأولى بنجاح ـ يعد المجاهدين الصالحين للقتال مثلما هو يعد القادرين على اجتياز صقيع العمل السياسي. عليه أقول لا بد أن ندرس سورتي محمد والفتح من حيث هما سورتا تحرك مرحلي بكل مستلزمات المرحلة وهنا تكمن عظمة القرآن من حيث هو كتاب حركة.

شيوع الاستغلال الاقتصادي في العالم الإسلامي

الآفات الاجتماعية التي تتعرض لها الأمم:

من أخطر الآفات الاجتماعية التي تتعرض لها الأمم هي آفة: **سوء توزيع الثروة**. فإذا استعرضنا واقع العالم الإسلامي اليوم لوجدنا أن هذه الآفة أخذت تنهش في المجتمعات الإسلامية نهشاً وأفرزت بدورها قائمة من الانهيارات البنيانية وبالأخص: **الطغيان السياسي والتحلل الاجتماعي**. فثمة ترابط وثيق بين أضلاع هذا المثلث الخطير، ولا يمكن للمسلمين أن يقضوا على واحد من هذه الأضلاع دون المباشرة في القضاء تماما على الضلعين الباقيين. ويتبدى سوء توزيع الثروة في العالم الإسلامي اليوم من خلال استئثار طبقة رقيقة من المجتمعات الاسلامية بالثروة وكافة ما تعنيه على الصعيد الاجتماعي والسياسي، بينما تئن جماهير وسواد الإسلام من الجوع والمرض والجهل والتخلف الحضاري والعلمي والمعيشي.

هذا الواقع الذي تعيشه جماهير الإسلام لم ينشأ من عدم، بل تكون على مهل وبغفلة من هذه الأمة.

من العوامل التي أدت إلى انهيار الأمة هو شيوع الاستغلال الاقتصادي:

ولسنا هنا في صدد التشخيص الموسوعي لهذه القضية: سوء توزيع الثروة في العالم الإسلامي حيث أن ذلك يتطلب بحوثاً مفصلة، غير أننا نستطيع أن نقرر هنا بأن من ضمن العوامل التي أدت لهذا الإنهيار البنياني في الأمة الإسلامية ناتج من **شيوع الاستغلال الاقتصادي** فيها.

فعلى طول وعرض العالم الإسلامي هناك طبقة من أبناء جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا ويدينون بديننا، ويعيشون بيننا؛ هذه الطبقة تحالفت مع المؤسسات التجارية والاقتصادية الغربية العملاقة لنهب ثروات العالم الإسلامي: نفط، أخشاب، مطاط، مياه، سواحل، حديد، نحاس، أسماك، جلود، مواشي، زروع وثمار، وتصنيعها في بلاد الغرب وإعادة تصديرها لنا بالأسعار التي يحددونها وتناسبهم. **هذه العملية الاستغلالية الكبيرة التي يمارسها الغرب بالتحالف مع طبقة معينة ومعروفة من أبناء المسلمين ــ وهي طبقة تحقق هوامش من الأرباح خلال ذلك وعلى حساب أمة الإسلام**؛ أقول هذه العملية الاستغلالية الكبيرة ما موقف الإسلام منها؟ وكيف يجب أن يكون موقف المسلمين منها؟.

موقف الإسلام من الاستغلال الاقتصادي:

موقف الإسلام من الاستغلال الاقتصادي هو بلا شك موقف

الرفض التام، لأن الإسلام يقرر بأن للمال وظيفة اجتماعية عمرانية ينبغي أن تؤدي إلى المصلحة الجماعية للمسلمين. ومن هنا ولأجل هذا حرم الربا وحجر على السفيه ومنع الاضرار بكل ضروبه وأشكاله حتى لو كان هذا الاضرار يحقق مصلحة لبعض المسلمين.

الاستغلال الاقتصادي الذي يمارسه الغرب:

أما الاستغلال الاقتصادي الذي يمارسه الغرب في العالم الإسلامي من نهب للثروات وتصنيعها وإعادة تصديرها لنا على أنها بضاعة غربية يبيعها علينا بالأسعار التي يحددها؛ فإن هذا الضرب من الاستغلال والسماح به وتغاضي المسلمين عنه ليس فقط أمراً يؤدي إلى الاضرار بمصالح المسلمين وهو أمر محرم؛ بل إنه أخطر من ذلك لأنه يرفع علامات الاستفهام حول **مسألة الولاية** وهي مسألة حسمها القرآن الكريم وسنة محمد بن عبد الله ﷺ. وهذا التحالف والتناصر الحاصل بين تلك الطبقة من أبناء جلدتنا والغرب الصليبي الحاقد أمر تحرمه الشريعة الإسلامية وسبق أن تداولت حوله الجماعة الإسلامية الأولى. فالقضية مبدئية من ناحية ووظيفية من ناحية أخرى.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[٢٧٤].

---

(٢٧٤) — سورة المائدة الآية ٥١.

والولاية هنا تعني التناصر والتحالف معهم ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم. ولقد نزلت الآية لحسم قضية كانت ساخنة في أوساط الجماعة الاسلامية. فقد كان البعض من الجماعة الاسلامية بحكم ماكان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر مع اليهود والنصارى يواصل صلات التحالف والتناصر معهم حتى نزلت الآية لتأمر بانهاء وقطع الصلة التي كانت قائمة لأنها كانت تؤدي إلى الاضرار بالجماعة الاسلامية. إن سماحة الاسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر وهو الحاصل اليوم بين طبقة من أبناء جلدتنا والغرب الصليبي الحاقد. وهذا هو الذي أدى ومازال يؤدي إلى أشكال كثيرة من التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية التي غرق فيها العالم الاسلامي وصار لقمة سائغة في فم الصليبية الحديثة المتمثلة بالغرب الحاقد. هذا التحالف والتناصر القائم بين الأطراف التي حددناها أعلاه هو الذي أفرز بدوره الاستغلال الاقتصادي الذي تئن منه جماهير المسلمين والذي ألقى بها في بحر من الجهل والمرض والجوع. وان بعض صوره هذه المليارات من أموال المسلمين والمودعة في مصارف الغرب و« المستثمرة »!؟ في مؤسساته الاستراتيجية ومنه هيئات لتطوير الاسلحة العسكرية الغربية ومصارف لاتتردد في منح القروض لاسرائيل. فأين علماء الاسلام من هذه القضية؟.

شيوع احتكار الأراضي في العالم الاسلامي

داء إحتكار الأراضي:

ينتشر في العالم الاسلامي ــ كتفريعة من تفريعات سوء توزيع الثروة ــ داء احتكار الأراضي فيلجأ بعض أصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي إلى وضع أيديهم على مساحات كبيرة للغاية من الأراضي وتسويرها وتركها هكذا بلا إحياء ولازراعة ولا استصناع بغرض المضاربة بها كلما احتاجوا لمزيد من المال. والأرض ثروة غالية سخرها الله سبحانه وتعالى لعباده لالكي يحتكرها هذا أو ذاك بل لكي تكون لها وظيفة اجتماعية يستفيد من ورائها المسلمون. وشيوع احتكار الأراضي بين المسلمين ساهم في بروز طبقة من الرأسمالية العقارية التي تذكرنا بالقبائل التي كانت تحتكر الأراضي الجاهلية بحجة أنها حمى لخيولها وإبلها والتي قال فيها رسول الله ﷺ: « لاحمى إلا لله ورسوله »[٢٧٥].

إلغاء الاحتكار:

وأنهى المصطفى ﷺ بذلك احتكارهم للأرض وجعلها مشاعاً

---

(٢٧٥) ــ الحديث تقدم تخريجه، انظر الحاشية رقم (٤٦).

للناس جميعهم. ومثل ذلك فعل رسول الله ﷺ في الماء لسقاية الأرض وإرواء المواشي ومن أجل ذلك حارب احتكار الآبار والمياه. وعلى المسلم المعاصر أن يعلم أن الاسلام من خلال معالجته لهذه القضية ــ قضية احتكار الأراضي ــ لايقر ممارسات الرأسمالية العقارية الحالية التي ساهمت في رفع أسعار الأراضي إلى درجات لايمكن القبول بها كتطور اقتصادي طبيعي.

ظاهرة احتكار الأراضي في هذا العصر:

بل علينا أن نعلم أن غلاء سعر الأراضي الحالي الذي يئن منه المسلمون ماهو إلا نتيجة لظاهرة احتكار الأراضي من طرف قلة قليلة من أصحاب النفوذ وهو أمر لايقبل به عقل ولاتقره شريعة. فما موقف الاسلام من هذه الظاهرة؟.

حكم الشريعة في مستغل الأراضي:

يجبر مالك الأرض في الاسلام أن يستغلها بل ويعطى المحتاج من بيت المال تمكينه من هذا الاستغلال. فإذا لم يستغلها خلال ثلاث سنين تؤخذ منه وتعطى لغيره. ولايجوز في الاسلام أن يمتلك أحدهم الأرض دون أن يكون قادراً على استغلالها عن طريق احيائها أو سكناها أو استصناعها، أما مايحدث اليوم من وضع اليد على أراض شاسعة وتسويرها وتركها هكذا بدون استغلال واستعمال يؤدي إلى فائدة للمسلمين فلا يجوز. فقد حدث يونس عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر قال:

« جاء بلال بن الحارث المزني إلى رسول الله ﷺ فاستقطعه أرضاً فأقطعها له طويلة عريضة. فلما ولي عمر قال له: يابلال إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً طويلة عريضة فقطعها لك وان رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئاً يسأله وأنت لاتطيق مافي يديك. قال: أجل. فقال له عمر: فانظر ماقويت عليها منه فأمسكه ومالم تطق ومالم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين. قال: لا أفعل والله. فقال عمر: والله لتفعلن. فأخذ منه ماعجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين »[276].

لقد استنبط الفقهاء من هذه الرواية وأمثالها عدة أحكام منها:

استنباطات الفقهاء في الاحتكار:

١ ــ لايجوز لأي سبب من الأسباب تعطيل استغلال الأرض فهي مثل المال يجب أن يأخذ دورته الاجتماعية ليستفيد عموم المجتمع من تلك الدورة.

٢ ــ أن الأرض إذا لم يطق صاحبها زرعها أو غير ذلك من صنوف الاستعمال وأهملها ثلاث سنين يجوز للدولة مصادرتها ودفعها لغيره ممن يتمكن من احيائها كما فعل عمر بن الخطاب مع بلال المزني.

٣ ــ لايجوز لصاحب الأرض أن يؤجرها للزراعة، فإما أن

---

(٢٧٦) كتاب الخراج، يحيى بن آدم ص ٩٣.

يزرعها لنفسه أو أن يمنحها بدون مقابل لغيره فقد جاء في صحيح مسلم: « نهى رسول الله ﷺ أن يؤخذ للأرض أجر وحظ »[277] وجاء في الصحيحين: « نهى رسول الله ﷺ عن كراء الأرض قلنا يارسول الله إذن نكريها بشيء من الحب قال لا. قلنا نكريها بالتبن قال لا. قلنا نكريها على الربيع قال لا. ازرعها أو امنحها أخاك »[278].

٤ ـ تملك الأرض بالتحجير، والاقطاع، والاحياء، والميراث، والشراء وفي كل أحوال التملك لايجوز تعطيل استغلالها.

هكذا يتبين لنا أن أحكام الشريعة الاسلامية في ملكية الأراضي لاتقر احتكار الأراضي الحاصل في العالم الاسلامي اليوم وأنها تقف لصالح توزيعها على عموم المسلمين القادرين على زراعتها وإحيائها وكما قال رسول الله ﷺ: « وليس لعرق ظالم بعد ذلك حق »[279].

---

(٢٧٧) ـ رواه مسلم ج ٣ ص ١١٧٦ حديث ٩٠.

(٢٧٨) ـ فتح الباري ج ٥ ص ٤٢٠، ومسلم ج ٣ ص ١١٧٦ حديث ٨٧ ومابعده.

(٢٧٩) ـ فتح الباري ج ٥ ص ٤١٥.

المال : كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم

المال لله :

المال ــ في منظور الاسلام ومن حيث الملكية ــ هو لله باعتبار الله هو المالك ولأن القرآن قد نص على ذلك : ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾[280] .

الانسان مستخلف فيه :

وعلاقة الانسان بالمال ــ في منظور الاسلام ــ ليست علاقة ملكية بقدر ماهي علاقة استخلاف فالانسان مستخلف على المال الذي بين يديه فقط لاأكثر ، أما المالك له فهو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[281] . هذا من حيث المبدأ .

حدود استغلال المال :

بعد ذلك يبين الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ حدود هذا الاستخلاف : المباح والمكروه والحلال والحرام والاستحسان فيما يتعلق بالتصرفات المالية . فلا يجوز للمسلم أن يكون من المبذرين

---

(٢٨٠) ــ سورة النور الآية ٣٣ .

(٢٨١) ــ سورة الحديد الآية ٧ .

ولايحق له أن يكون من المقترين بل لابد من الموازنة: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٢٨٢] هذا في الحلال، أما صرف المال في أوجه محرمة فطبعاً لايجوز وذلك من نافل القول. ولايحق لصاحب المال أن يقرض بفائدة لأن ذلك ربا والربا كما هو معلوم حرام والقرض الحسن هو المعمول به في المجتمع الذي يحتكم للاسلام، أي القرض الخالي من الفائدة لصاحب المال ولايحق لصاحب المال أن يصرفه كله أو معظمه على الطاعات والتبرعات وأعمال البر قبل أن يوفي حق من يعول من زوجة وأطفال وأولاد وأقرباء فقد اعتبر بعض الفقهاء ذلك إسرافاً يقتضي الحجر عليه وقال آخرون: لا إسراف في الطاعة[٢٨٣].

حقوق المال:

القصد من ذكر ذلك أن نبين بأن في المال حقوقاً كثيرة لاينبغي التصرف به إلا بعد أن توفى تلك الحقوق، ولايجوز شرعاً السماح للسفيه بأن يتصرف بماله كيف شاء ولذلك استدل الفقهاء بالآية: ﴿ ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴾[٢٨٤] قال القرطبي: دلت الآية على جواز الحجر على السفيه. والسفيه هو الذي يتصرف بماله خلاف مايقتضيه الشرع.

---

(٢٨٢) ــ سورة الفرقان الآية ٦٧.

(٢٨٣) ــ تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٩.

(٢٨٤) ــ سورة النساء الآية ٥.

ويحذر القرآن أصحاب الأموال بأنها فتنة ـ ليس إلا ـ وان الاعتداد بها والركون إليها وكنزها يؤدي إلى هلاك محتم.

- ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾[٢٨٥].
- ﴿ ويل لكل همزة لمزة. الذي جمع مالاً وعدده ﴾[٢٨٦].
- ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[٢٨٧].

أوجه انفاق المال:

وبعد أن وضع الاسلام التصور العام للمال من حيث الملكية والاطر العامة للتصرف به، حدد كذلك أوجه انفاقه الواجبة واللازمة والمستحسنة والمستحبة ويلاحظ أن تشريعات الاسلام المالية كلها تخدم مصلحة جماعية وتنحاز للفقراء والمعوزين والمحتاجين وتتجه نحو تفتيت الثروات المالية على أكبر قاعدة ممكنة من الناس بحيث تحول دون تركيزها في أيد قليلة.

﴿ ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾[٢٨٨].

---

(٢٨٥) ـ سورة التغابن الآية ١٥.

(٢٨٦) ـ سورة الهمزة الآيتان ١ ـ ٢.

(٢٨٧) ـ سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢٨٨) ـ سورة الحشر الآية ٧.

مفهوم كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم:

هذه العبارة ﴿ كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ تضع أمامنا قاعدة اقتصادية كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الاسلامي. فالملكية الفردية في الاسلام حق معترف بها ولكن ينبغي أن تتحرك ضمن اطار هذه القاعدة الأشمل؛ قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط ممنوعاً من التداول بين الفقراء. فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم فهو وضع يصطدم ويتناقض مع مقررات الشريعة الاسلامية وأهداف التنظيم الاجتماعي في الاسلام[٢٨٩].

من أجل هذا فرض الاسلام الزكاة وحرم كلا من الاحتكار والربا وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دولة بين الأغنياء وتركيزه في أيديهم.

الحق الواجب في المال من غير الزكاة:

وقد ذهب بعض الفقهاء ومنهم ابن حزم ان في المال حقوقاً سوى الزكاة، فيقول:

« وفرض على الأغنياء من كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم بهم الزكوات ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن

---

(٢٨٩) ــ في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٨ ص ٣٧ الطبعة الأولى.

اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة »[٢٩٠].

ويستشهد ابن حزم بقول نقل عن الامام علي بن أبي طالب أنه قال:

« إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر مايكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه »[٢٩١].

هكذا نجد كيف حارب الاسلام تركيز الأموال بيد الأغنياء وهو أمر حاصل اليوم في كل أرجاء العالم الاسلامي وهو من الأسباب الرئيسية للشظف والجوع والحرمان الذي يعاني منه جماهير المسلمين.

---

(٢٩٠) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ٤٥٢.
(٢٩١) ــ المحلى لابن حزم ج ٦ ص ٢٢٨.

توزيع الثروات ومحاربة تكديسها

الأهداف من توزيع الثروات:

الذي يتفحص التشريع الاقتصادي في الاسلام يلاحظ بدون شك الأهداف الجماعية التي يتوخى تحقيقها. فتشريعات الزكاة والارث والصدقات وإعارة الماعون ومساعدة ابن السبيل وكفاية الفقراء وكفارات الأيمان والافطار والظهار وغيرها، كل هذه التشريعات يلاحظ أنها تؤدي إلى توزيع الثروة على أكبر قاعدة من الناس، كما أنها ـــ أي التشريعات ـــ تحارب تكديس وتركيز الثروة في أيدي القلة، يتوضح هذا الأمر حين التمعن بتفاصيل هذه التشريعات.

تشريع الزكاة:

فالزكاة تعمل وبشكل عملي وعلى أمد طويل على إعادة توزيع الثروة في اتجاه المساواة والعدالة. فهي تؤخذ من الغني وتعطى للفقير. وأصحاب الأموال معرضون دائماً في ميادين التجارة والاستثمار إلى الربح والخسارة، غير أن الخسارة غير معتبرة في حساب الزكاة طالما أن صاحب المال يملك مايزيد عن النصاب ولو كان ماله يمر في حالة التناقص. هكذا إذن نجد أن تشريع الزكاة يهدف إلى اعادة توزيع الثروة لكن على مدى طويل.

تشريع الارث :

أما تشريع الارث ـــ كما جاء في القرآن ـــ فهو نظام تفصيلي دقيق يتحدث عن أرقام رياضية لاتقبل الخرص والاحتمال : النصف والثلث والربع والسدس ، ويتناول كميات من الثروة في صورها العديدة المنقولة وغير المنقولة فيوزعها على فئات عديدة وينشرها على أعداد كبيرة من الناس .

الفرق بين الارث عند الرأسماليين وبين الارث في القرآن :

والذي يقارن نظام الارث في العالم الرأسمالي بنظام الارث القرآني ، يلاحظ ان الفارق الرئيسي بين النظامين هو أن الأول يكرس ويساند تكديس الثروة في يد القلة ، وأن النظام الثاني ـــ الاسلامي ـــ يسعى إلى تنظيم وجود الثروة وتوزيعها على أكبر عدد ممكن من الناس حتى لو لم يكونوا من أقرباء المتوفى ؛ فلقد قرر القرآن لليتامى والمساكين الذين يحضرون قسمة التركة شيئاً من المال ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا** ﴾[٢٩٢] قال بعض العلماء هذه العطية واجبة على جهة الفرض وقال آخرون ان هذا العمل مندوب إليه ورجحه القرطبي[٢٩٣] . فإذا اعطوهم من الأموال المتروكة فعليهم أن يقولوا لهم قولاً معروفا ، قال سعيد بن جبير يقال

---

(٢٩٢) ـــ سورة النساء الآية ٨ .

(٢٩٣) ـــ تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٨ ـــ ٤٩ .

لهم: « **خذوا بورك لكم** »[٢٩٤]. فنظام الارث في العالم الرأسمالي يقوم على ركيزة المحافظة على الثروة المتراكمة ضمن دائرة ضيقة، بينما أن نظام الارث الاسلامي يقوم على ركيزة التوزيع للثروة المتروكة ونثرها على أوسع دائرة ممكنة من الناس.

العقوبات المالية في الاسلام لصالح الفقراء والمساكين:

حتى العقوبات المالية المفروضة في الاسلام جاءت في اتجاه اعادة توزيع الثروة لصالح الفقراء والمساكين والمعوزين ونظام العقوبات المالية في الاسلام عرف بنظام الكفارات.

تعريف الكفارات:

والكفارة هي العقوبة التي قدرها الشارع الحكيم عند ارتكاب أمر فيه مخالفة لأوامر الله تعالى وتشمل كفارة اليمين وكفارة الظهار وكفارة الافطار في رمضان.

* ﴿ لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان. فكفارته **إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم، أو كسوتهم**،أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾[٢٩٥].

---

(٢٩٤) ــ تفسير القرطبي ج ٥ ص ٥٠ ط القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

(٢٩٥) ــ سورة المائدة الآية ٨٩.

● « وروى أبو هريرة: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت يارسول الله، قال: وما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: هل تجد ماتعتق رقبة؟ قال: لا، فقال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين، قال: لا، فقال: **هل تجد ماتطعم ستين مسكينا**؟... إلى آخر الحديث »[٢٩٦].

● ﴿ الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع **فاطعام ستين مسكينا** ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾[٢٩٧].

الأوقاف العامة:

ومن يدرس تاريخ الأوقاف الاسلامية من حيث هي نوع من أنواع صدقات التطوع يدرك إلى أي مدى أصبحت المجتمعات الاسلامية تدرك التشريع الاقتصادي في الاسلام الذي يستهدف في الأساس تحقيق مصلحة عامة، فلقد كان هناك في المجتمعات الاسلامية أوقاف يصرف منها على المساجد والمدارس والمكتبات العامة والمستشفيات وإصلاح الجسور والطرقات العامة واللقطاء واليتامى والمقعدين والعميان والعجزة والمساجين والبذار للفلاحين وأدوات

---

(٢٩٦) — صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٨٢ حديث ١١٠٩ .

(٢٩٧) — سورة المجادلة الآيتان ٣ — ٤ .

الزراعة ودواب الزراعة وغيرها من المصارف العامة التي تؤدي إلى نثر الثروة وضخها من أجل الصالح العام للمسلمين بدل تكدسها وتكاثرها دون تداول. لاشك بأن نظام الوقف الاسلامي يحتاج إلى تاريخ من حيث هو نظام عملي كبير الفائدة للجماعة ومن حيث هو طريقة فذه في تدوير المال في المجتمع والحؤول دون تركزه وكنزه.

هذه تنظيمات كانت قائمة في المجتمعات الاسلامية وبعضها مازال قائماً وقد أثبتت فعاليتها البعيدة المدى وتعكس موقف الاسلام من الثروة ومن ضرورة توظيفها لصالح العموم.

الموقف الاسلامي في دكتاتورية رأس المال

العالم الاسلامي يطبق النهج الرأسمالي:

معظم أقطار العالم الاسلامي المترامي اليوم تنهج ــ من حيث النظام الاقتصادي ــ النهج الرأسمالي الذي يؤكد مايسمى بـ « حرية التجارة » وحرية « حركة رأس المال » إلى آخره من الدعاوي. وينبغي علينا نحن المسلمين أن نكون على بينة من هذا الأمر على مستويين:

الأول: علينا أن نفهم منطق النظام الرأسمالي من حيث هو نظام اقتصادي وعلينا أن نفهم منطلقاته المبدئية واسقاط تلك المنطلقات على واقع المجتمعات الرأسمالية، أما المستوى الثاني فهو ضرورة تحديث موقفنا العقائدي في النظام الرأسمالي منطلقين من الكتاب الكريم وسنة نبينا ﷺ.

يؤكد واقع المجتمعات الرأسمالية أن الفرد المواطن ــ بالرغم من الحديث المستمر عن قدسية حريته ورأيه وكيانه ــ قد صار رهينة بين رأس المال الذي يتحكم بالسياسة والاعلام والسلع الضرورية. في جنوب افريقيا مثلاً صار أصحاب المناجم والمزارع الكبيرة من

الهولنديين والانجليز هم الحكام يمارسون حرياتهم الفردية في الفكر والسياسة والمال. أما شعب تلك البلاد من الزنوج والملونيين الأفارقة والآسيويين فهم لايمارسون أدنى صور الحرية الفردية. بما فيها حرية الانتقال والسكن والعمل. أما في الولايات المتحدة وكندا وإيطاليا فيلاحظ أن كبار الصناعيين والمتمولين صاروا يشكلون جماعات ضغط بل ويقيمون أحزاباً سياسية للتأثير على القرار السياسي حتى صاروا الآن حكاماً يتحكمون في مسار مجتمعاتهم السياسية ويؤثرون بشكل واضح على مجرى السياسة الدولية. ومن يدرس أوضاع المجتمعات الأوربية الغربية والأمريكية الشمالية بالذات — وهي مجتمعات رأسمالية — ويستخلص **الأسس الفعلية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي** يجد الآتي :

الأسس التي يقوم عليها النظام الرأسمالي :

١ — النظام المالي هو الذي يتحكم في القرار السياسي وتوجهاته.

٢ — المال قوة مسيطرة على جوانب الحياة الاجتماعية بأجمعها (التعليم — الفن — الأدب — النشر —).

٣ — كل وسيلة تؤدي إلى زيادة الأرباح فهي مشروعة في الرأسمالية :

الربا مشروع ، التدليس والرشوة مشروع ، المقامرة بالأوراق المالية مشروع ، القمار بكل صوره مشروع ، والاحتكار في الانتاج الصناعي مشروع كذلك.

٤ ــ تلعب البنوك وشركات التأمين وبورصة الأوراق المالية أدواراً كبيرة للغاية في تحديد نتائج الانتخابات السياسية وتوجهاتها.

٥ ــ الاستغلال للطاقات البشرية والمهارات الفنية ودفع أجور غير متكافئة مع قيمة الانتاج وهامش الربح الواسع.

هذه هي الأسس الفعلية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي من خلال اسقاطاته على المجتمعات الرأسمالية في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية.

منطلقات النظام الرأسمالي الفكرية:

ويبدو من خلال ماعرضنا ان منطلقات النظام الرأسمالي الفكرية والمبدئية هي كما يلي:

١ ــ ان المال لدى الأفراد ملكية شخصية مطلقة.

٢ ــ ليس هناك شريك لصاحب المال في ماله سواء كان الشريك أفراداً أو الدولة.

٣ ــ ان ربح المال يعود لصاحب المال وحده لا شريك له فيه.

٤ ــ ان حريات اختيار وسائل الاستثمار لاتخضع لرقابة طالما أنها غير موجهة للاضرار بفرد معين أو افراد معينين.

هذه المنطلقات العامة الفكرية والمبدئية للنظام الرأسمالي جعلت من القلة الذين يتحكمون بالمال قوة سياسية واجتماعية تتحكم في مسار المجتمعات الرأسمالية وتؤثر بشكل واضح على مجريات السياسة الدولية ــ من حيث ان الأخيرة عبارة عن شبكة من الصراع

الاقتصادي على المستوى الكوني.

أكبر عائق لحريات الأفراد مبدأ حرية رأس المال:

وأصبح النظام الرأسمالي ــ والذي ينطلق من مبدأ حرية حركة رأس المال ــ أكبر معوق فعلي لحريات الأفراد النظيفة في مجال العمران الاجتماعي والسياسي، أما حريات الهبوط والتدهور الفردي والجماعي فهو يرحب بها بل ويشجعها لأنها تفتح المجتمعات أكثر وأكثر للسلع وتضمن دورة الانتاج الرأسمالي.

عليه نسأل: إذن ماموقفنا العقائدي من الرأسمالية سواء اسسها الفعلية أو منطلقاتها الفكرية والمبدئية؟.

عود على بدء الموقف الاسلامي من دكتاتورية رأس المال

حددنا الأسس الفعلية والمنطلقات الفكرية والمبدئية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي. وتناولنا كذلك اسقاطات وآثار النظام الرأسمالي على الأصعدة السياسية والاجتماعية باختصار شديد. والآن نحاول الاجابة على السؤال الذي طرحناه وهو: ماموقفنا العقائدي من الرأسمالية سواء أسسها الفعلية أو منطلقاتها الفكرية والمبدئية؟ نقول وبالله التوفيق.

أوجه التعارض بين الإسلام والرأسمالية:

يتعارض الإسلام والرأسمالية من وجوه عدة:

أولها: إذا كانت الرأسمالية تنظر إلى المال لدى الأفراد على أنه ملكية شخصية مطلقة يحق للشخص أن يتصرف به كيف شاء، فإن الإسلام يعتبر الملكية المطلقة والمالك الحقيقي هو الله، وأن الفرد الذي لديه المال ليس إلا مستخلفاً عليه أو مؤتمناً عليه وسوف يسأل ويحاسب على كيفية تصرفه بذلك المال.

في الرأسمالية يتصرف الفرد بماله كيف يشاء أما في الإسلام لا يحق له ذلك:

وإذا كان الفرد في النظام الرأسمالي له مطلق الحرية في أن يتصرف بالمال الذي بين يديه بالشكل الذي يرى ولو كان في ذلك إسراف وتضييع وفساد، فإن النظام الإسلام يحدد الأُطر التي ينبغي على الفرد التقيد به في صرفه للمال الذي بين يديه، وإذا خرج عن تلك الأُطر المرسومة حجر عليه باعتبار حامل المال سفيهاً. ومن يقرأ في باب « **الحجر على السفيه** » في الفقه الإسلامي يجد أن الإسلام يعطي الحق للمجتمع الإسلامي ممثلا بالدولة الإسلامية أن ينزع المال من يد السفيه على أن يحفظ له الحد الأدنى من العيش اللائق بالإنسان.

والسفيه هو الذي يتصرف في ماله بخلاف ما يقتضيه الشرع ويسرف في إنفاق المال بشكل خارج عن الأصول الإسلامية كأن يبذر أمواله في القمار وشرب الخمر وغير ذلك.

وقد اعتبر بعض الفقهاء الذي ينفق كل أمواله على الطاعات كبناء المساجد وغير ذلك دون أن يوفي حق أهله ومن يعول مسرفاً يجوز الحجر عليه ليعطى كل ذي حق حقه.

فالفرد إذن في النظام الإسلامي لا يحق له أن يتصرف بماله كيف شاء كما يحدث في النظام الرأسمالي.

ثانيها: يؤكد النظام الرأسمالي أن ليس لصاحب المال شريك

فيه سواء كان ذلك الأفراد أو الدولة. بينما يؤكد الإسلام أن للمستخلف على المال شركاء لهم حقوق في ماله يجب أن يؤديها ومن يتعمد رفضها ورفض تأديتها مثل الزكاة يعتبر مرتداً يجب قتاله كما فعل أبو بكر خليفة رسول الله مع الذين رفضوا تأدية حق الزكاة. كما أن أحكام الإرث تؤكد حق المشاركة هذا لأن صاحب المال ليس له الحق أن يوصي بأكثر من ثلث التركة للجهة التي يريد، أما الثلثان الباقيان من تركته فتقسم حسب آيات الإرث في سورة النساء وهي تحث على توزيع الثروة ونمائها على أكبر قدر ممكن من الناس. أما أحكام الصدقات وإعارة الماعون ومساعدة ابن السبيل وكفاية الفقراء والكفارات كلها فتؤكد هذه المشاركة الجمعية في المال الخاص.

في الرأسمالية يكدس المال لصاحبه أما في الإسلام فيجب أن يدور هذا المال إلى فئات أخرى:

وهذا مفرق كبير بين الرأسمالية والإسلام: فالفرد في ظل النظام الإسلامي ليس له الحق في الاستئثار بماله وحده — كما يحدث في النظام الرأسمالي — بل لا بد أن يوفى كثيراً من الحقوق الشرعية التي فرضتها الدولة الإسلامية لظروف اقتصادية تمر بها والتي قد يخضع للتعديل والزيادة والتخفيض وربما الالغاء حسبما تمليه ظروف الجماعة الإسلامية.

ثالثها: يؤكد النظام الرأسمالي حرية اختيار وسائل الاستثمار والانتاج بشكل شبه مطلق.

الاستثمار في الرأسمالية مطلق بينما في الإسلام يحدد ضمن الاستثمار المشروع:

ومن هنا نجد أن النظام الرأسمالي يعتبر المؤسسات الربوية الاحتكارية مشروعة محمية بالقانون وكذلك دور القمار وعلب الليل وتجارة الخمور وانتاجها والمقامرة بالأوراق المالية والاحتكار الصناعي، كل هذه الممارسات والوسائل يعتبرها النظام الرأسمالي وسائل مشروعة للكسب وللاستثمار والانتاج. أما الإسلام فيحدد الاطار العام الذي ينبغي أن تتحرك ضمنه العملية الاستثمارية والانتاجية نستطيع أن نوجزه بالنقاط التالية:

أمثلة للاستثمار والانتاج في الإسلام:

ــ جعل الشرع تنمية المال مقيدة في حدود لا يجوز تعديلها، فمنع الفرد من تنمية ملكه بطرق معينة منها: **القمار** بأنواعه، **والربا** باعتباره صورة من صور الظلم والاستغلال لجهد الناس، **والغبن الفاحش** وهو بيع الشيء بأكثر مما يساوي أو بأقل مما يساوي والغبن الفاحش حرام شرعاً لأنه ثبت في الحديث الصحيح طلب ترك الغبن طلبا جازما، **والتدليس في البيع** ومعنى تدليس البائع السلعة هو أن يكتم العيب فيها عن المشتري مع علمه بها ومعنى تدليس المشتري قد يكون في الثمن المدفوع مثلا أن يزيف عملة أو يكتم ما فيها من زيف، **والاحتكار** لأن الشريعة الإسلام بناء على ما ثبت من نصوص تمنعه مطلقاً وهو حرام شرعاً لورود النهي الجازم عنه في صريح

الحديث. وهذه كلها وسائل يسمح بها النظام الرأسمالي بل أن معظم ــ إن لم يكن كل ــ النشاط الاقتصادي الرأسمالي في مجال الاستثمار والانتاج يقوم على هذه الوسائل المحرمة في الشريعة الإسلامية. فالقمار له دور خاصة (الكازينوهات) مرخصة قانونياً يمولها بعض الرأسماليين ويذهب ضحية لها المواطن وتحصل هذه الدور على حماية خاصة من الدولة. أما الربا فكل المؤسسات المالية في العالم الرأسمالي تتعامل به وتتنافس فيه. أما الغبن الفاحش والتدليس فهو نشاط يومي في النظام الرأسمالي وهو يعتبر ضمن آليات السوق ومنطقه وجزءاً من ميكانيكية العرض والطلب التي بشَّر بها آدم سميث. وأما الاحتكار فهو من أبرز صفات السوق الرأسمالي. وكل هذه الوسائل محرمة شرعاً ولا يجوز التعامل بها.

ضرورة تحقيق حركة الاستثمار والانتاج الفوائد العامة للمجتمع:

ــ كذلك يؤكد الإسلام على ضرورة أن تحقق حركة الاستثمار والانتاج فائدة عامة للمجتمع الأوسع. هذا التأكيد على الجانب الاجتماعي للانتاج وإبراز الصيغة الاجتماعية للعلاقات الانتاجية ونشر فوائد الانتاج وتوزيعها في إطار موازين عادلة يأتيان في مقدمة الأهداف الانتاجية. فالنظام الاقتصادي الإسلامي ملتزم التزاماً عميقاً بمبدأ الانتاج من أجل عموم الناس ولمصلحتهم بينما نجد أن أهداف حركة الانتاج تتركز في مضاعفة وتأثر الأرباح للمنتجين فقط أي القلة الذين يتحكمون بحركة رأس المال.

المشكلة الاقتصادية في الرأسمالية والإسلام:

ـ المشكلة الاقتصادية في النظام الرأسمالي تتركز في الندرة النسبية للموارد مقابل توفير السلع للاشباع الجماعي. فنظراً لندرة المواد تندر السلعة وبالتالي يصير الصراع عليها. بينما يعتبر الإسلام أن المشكلة الاقتصادية الفعلية نتجت عن كسل البشر وإهمالهم لاستخراج الخيرات التي خلقها الله والانتفاع بها وهي كثيرة ووفيرة وكافية لكل بني الإنسان وهذا الكسل أدى إلى الظلم والعدوان الذي يرتكبه القوي على الضعيف المتواكل. فالله يؤكد في كتابه وفرة الموارد: ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[٢٩٩]، ولكنه الظلم من جهة والكسل من جهة أخرى والمصطفى ﷺ يقول: « استعن بالله ولا تعجز »[٣٠٠].

هكذا وعبر سطور يتبين لنا التعارض الجوهري بين النظام الرأسمالي والتشريع الاقتصادي الإسلامي وهو تعارض في المنطلقات الأساسية والمبدئية وهو أمر لا يمكن التحايل عليه عبر إجراءات الترقيع الحاصل في أكثر من قطر إسلامي والله المستعان.

---

(٢٩٩) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٣٠٠) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٢ حديث ٢٦٦٤.

الموقف الإسلامي من النظرية الماركسية

ماذا تقول النظرية الماركسية:

لكي نحدد الموقف الإسلامي من النظرية الماركسية لا بد أن يعرف القارئ ــ بدقة ــ ماذا تقول التظرية المذكورة إذ أن كثيرا من الناس يبنون مواقفهم على انطباعات يعوزها العلم الموضوعي بالأشياء والمصطلحات والمفاهيم. وإذا كان هذا الأمر لا غبار عليه عند غير المسلم؛ فلا يليق ذلك بالمسلم بل ينبغي أن يكون من « الذين يعلمون » ويبنون مواقفهم على علم موضوعي لا على هوى أو عناد أو نزعة.

تعريف النظرية الماركسية:

ونقصد بالنظرية الماركسية الدليل النظري التي تسترشد به الأحزاب الشيوعية في صراعها مع القوى السياسية غير الشيوعية، وهو دليل ذو طبيعة شمولية فهو يتناول التاريخ بالتحليل والتفسير وكذلك المجتمعات والحركة الاقتصادية ضمن ذلك. وبإمكاننا أن نتناول هذا الموضوع بشكل موسع وهذا سيضطرنا بالطبع لرصد منابع الفكر الماركسي أو المؤثرات التي صبت فيه سواء عند

أوجست كونت أو فريرباخ أو دارون أو هيجل. وكذلك سيضطرنا التحليل الموسوعي للموضوع إلى التطرق لرواد الاشتراكية الأوائل: سان سيمون وشارل فورييه وروبرت أوين. وقد يقذف بنا هذا المدخل للموضوع إلى شيء من الأكاديمية التي لا نعتقد بأن القارئ يحتاجها الآن. **لذلك سوف نحدد بعض المفاهيم الرئيسية التي تطرحها النظرية الماركسية وعلى ضوئها نشرع في تحديد موقفنا الإسلامي منها. فما هي المفاهيم الرئيسية؟.**

المفاهيم الرئيسية للنظرية الماركسية:

التفسير المادي للتاريخ:

(المادة عند ماركس، هي المحرك الرئيسي للتاريخ، والعامل المهيمن في التطور، عن طريقها تتحدد العوامل الأخرى، لأن هذه العوامل ليست مستقلة في تكوينها وتشكلها، بل تتأثر في وجودها وفي صورها بالظروف المادية المتصلة بطرق الانتاج وبعلاقات التبادل التي تنشأ بين طبقات المجتمع نتيجة لهذه الطرق. ويقول ماركس بأن الأوضاع القانونية والاجتماعية والسياسية والفنية والأدبية والفلسفية، وجميع النواحي الفكرية عموماً، لا يمكن أن تفهم بذاتها، لأنها تتحدد وتتشكل وفقا لتأثر العوامل المادية أو الاقتصادية عليها. فالأوضاع الاقتصادية هي الأساس الرئيسي الذي يؤثر في كافة الأوضاع والنظم الاجتماعية والفكرية الأخرى، بحيث تنطبع هذه الأوضاع والنظم بالصورة التي يقتضيها البناء الاقتصادي القائم).

الخماسية التاريخية :

الأشكال الاجتماعية الخمسة :

لقد سجل التاريخ خمسة أشكال اجتماعية هي : المشاعية البدائية ، ونظام الرق ، والاقطاع ، والرأسمالية ، ثم الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية الممهدة للشيوعية .

نشوءها :

كان البشر في طور المشاعية البدائية يعيشون في حالة وحشية يأكلون مما يجدونه في الطبيعة من نباتات صالحة للاستهلاك ولم يكن لديهم تملك خاص لأدوات الانتاج . ومع ظهور الملكية الخاصة لأدوات ومواد الانتاج تلاشت المشاعية البدائية وظهر أول تقسيم للمجتمع إلى طبقات على أساس المصالح الاقتصادية ، وبهذا يكون قد نشأ نظام جديد على أنقاض المشاعية البدائية ألا وهو نظام الرق .
نشأ نظام الرق من طريقين : طريق الحروب فكان المغلوب في الحرب يتحول إلى رقيق ؛ ونتيجة لنمو الانتاج السلعي والتبادل النقدي ظهر الاقراض الربوي ومعه ظهر استعباد المدين عن طريق الديون فكان المدين الذي يثقل كاهله الدين الربوي الفاحش يضطر لبيع والده أو ابنه أو نفسه رقيقاً لأجل سداد دينه . وانتهى نظام الرق إلى الدمار حيث أصبح مناقضاً لطابع قوى الانتاج ، وظهر النظام الاقطاعي .
ويتميز النظام الاقطاعي بأن علاقات الانتاج فيه قائمة على ملكية الأقطاعي للأرض كوسيلة رئيسية للانتاج واشتغال الفلاح لحساب

السيد الاقطاعي، وكانت الدولة والكنيسة هما الجهازان الجباران المسيطران على المجتمع واللذان يحميان مصالح الاقطاع. وحين أصبح النظام الاقطاعي عقبة في وجه كل تطور لاحق في الانتاج الجديد وأخذت العلاقات الانتاجية الرأسمالية تظهر وتتطور نتيجة لعدة عوامل منها: الاكتشافات الجغرافية وزيادة التجارة؛ وحين أصبح الرأسمالي يستغل العمال نتيجة لهذا كله انهار نظام الاقطاع وانفجرت الثورات البرجوازية الرامية إلى هدم النظام الاقطاعي وفسح المجال أمام تطور الرأسمالية. غير أن الرأسمالية عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة تصبح أكثر فأكثر عائقاً في طريق تطور هذه القوى التي ولدتها هي ذاتها، ومن هنا يتبين أن إلغاء الرأسمالية بالطرق الثورية واستبدالها بالشيوعية أي بمجتمع لا طبقي تكون وسائل الانتاج فيه ملكاً مشتركاً يصبح ضرورة تاريخية.

ولكن هذا الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية يمر عبر مرحلة الاشتراكية وهذه المرحلة تهدف ــ كما تحدد ذلك المصادر الرئيسية للفكر الماركسي ــ للقضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان والقضاء في نفس الوقت على طبقات المجتمع المتناحرة ولا بد من فترة زمنية معينة حتى تتمكن الثورة من تحقيق ذلك.

صراع الطبقات:

المجتمعات منقسمة إلى طبقات متناقضة المصالح، ولما كان استغلال طبقة من قبل طبقة أخرى هو أساس الحضارة وتحركها ــ كما تطرح النظرية الماركسية ــ فإن نمو الحضارة كلها يسير في

تناقض مستمر. كل خطوة في الأمام في الانتاج هي في الوقت ذاته خطوة إلى الوراء في أحوال الطبقة المضطهدة، أي الأكثرية العظمى. كل ما هو خير للبعض لا بد أن يكون شرا للآخرين، كل تحرر جديد لإحدى الطبقات يعني اضطهاداً جديداً لطبقة أخرى. الدولة في الأساس وسيلة قهر طبقي بيد طبقة ضد عدة طبقات وفي مرحلة الاشتراكية تستولي طبقة العمال (البرولتياريا) على السلطة وتطوعها لصالح التحول الاشتراكي.

الدين:

يقول ماركس: (إن الدين لا يصنع الانسان ولكن الانسان يصنع الدين. إن البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الواقعي والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي في وقت ما. الدين زفرة الكائن المشتعل بالألم، وروح عالم لم يبق به روح، وفكرة عالم لم يبق فيه فكر. إنه أفيون الشعوب)[٣٠١].

ويقول انجلز: (ومهما يكن من شيء فليس الدين إلا الانعكاس الوهمي في أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية)[٣٠٢].

هذه باختصار شديد بعض المفاهيم الرئيسية التي تطرحها النظرية الماركسية وسوف نحدد الموقف الإسلامي منها عبر مناقشتها وإثبات بطلانها بإذن الله تعالى.

---

(٣٠١) كارل ماركس لهنري لوفافر ص ١٦ ترجمة محمد عيتاني دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٢ م.

(٣٠٢) انظر: آنتي دوهرنغ، انجلز ص ٣٨١.

الموقف الإسلامي من النظرية الماركسية
التفسير المادي للتاريخ

عرضنا فيما تقدم أهم المفاهيم الرئيسية للنظرية الماركسية بغية مناقشتها وتحديد موقف علمي إسلامي منها يساهم في الارشاد السياسي للحركة الإسلامية وكانت هذه المفاهيم الأساسية أربعة: أولاً التفسير المادي للتاريخ والثاني هو الخماسية التاريخية أو الاشكال الاجتماعية الخمسة التي سجلت في التاريخ وهي: المشاعية البدائية والرق والاقطاع والرأسمالية والشيوعية الثانية، وثالثاً ما طرحه ماركس حول الصراع الطبقي ثم رابعا وأخيرا ما ذكره حول الدين وهنا سوف نحاول ـــ في ضوء ما نعلم والله أعلم ـــ معالجة المفهوم الماركسي الأول وهو التفسير المادي للتاريخ.

مفهوم التفسير المادي للتاريخ:

فحوى مفهوم التفسير المادي للتاريخ هو أن القوى الأساسية في تطوير المجتمع البشري هي أسلوب الإنتاج. فأسلوب الانتاج في ـــ رأي ماركس ـــ هو الذي يحدد طابع النظام الاجتماعي وشكل النظام السياسي أو البنية الفوقية SUPRA- STRUCTURE للمجتمع كما يطلق عليها ويسميها.

أسلوب الانتاج:

فالناس يحتاجون بعض الضروريات مثل: المأكل والملبس والمسكن والوقود وأدوات الانتاج وهذه الضروريات لا بد من انتاجها، ولأجل انتاجها لا بد من **أدوات ووسائل انتاج** وهذه الأدوات لا بد من معرفة كيفية استخدامها. هذا ما يسميه ماركس **اسلوب الانتاج**؛ وهو كما نرى يعبر عن سلوك الناس نحو أشياء « الطبيعة » و « قواها » التي تستخدم لانتاج الحاجات المادية.

علاقات الانتاج:

وبعدها ندخل في موضوع دقيق وهو موضوع **علاقات الانتاج** إذ يسأل ماركس: من هو الطرف الذي ينبغي أن يتملك أدوات الانتاج؟ فالذي يتملك وسائل الانتاج هو الذي يتحكم بأسلوب الانتاج وبالتالي يسيطر على القوى الأساسية في تطوير المجتمع البشري. **إذن وبصيغة أخرى يقول ماركس: إن الوضع الاقتصادي هو الأساس وهو الذي يحدد الأشكال الفوقية في المجتمع مثل طبيعة النظام السياسي وتركيباته وطبيعة النظريات الحقوقية والفلسفية والدينية السائدة بين الناس.**

بتعبير أوضح ــ وفيما يتعلق بالدين ــ فإن الدين حسب مفهوم التفسير المادي للتاريخ لا يخرج عن كونه صدى للوضع الاقتصادي ليس إلا.

رأي الإسلام في التفسير المادي للتاريخ:

ولكي نحدد الموقف الإسلامي من التفسير المادي للتاريخ ينبغي أن نقول بداية أن الإسلام لم ينكر أهمية العامل الاقتصادي في حياة المجتمعات البشرية ومن أجل ذلك فالذي يتفحص القرآن الكريم يرى أنه قد أسهب في معالجة مواضيع اقتصادية صرفة مثل الربا والتجارة والبيع والإرث. كما عالج الوظيفة الاجتماعية للمال معالجة استهدفت تحقيق المصالح الجماعية في الأساس. وقد استنكر القرآن الكريم النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية ودعا إلى تقويضه وهدمه وبناء نظام اقتصادي تكافلي خالٍ من الربا والاحتكار والغبن والتدليس والتطفيف، كل ذلك في سبيل توزيع أفضل للثروة وتوظيف أحسن للمال وتزكية للعلاقات الاجتماعية. ومن يتوسع في قراءاته حول التشريع الاقتصادي الإسلامي يجد ذلك وأكثر ... ولكن؟.

نعتقد أن تفسير المفهوم المادي للتاريخ وتغليب العامل الاقتصادي كعامل أساسي على ضوئه نفسر التاريخ، بل نفسر حتى معتقدات الناس وأديانهم فهذا أمر لا يخلو من غلو إضافة إلى ذلك نعتقد بأن نظرية التفسير المادي للتاريخ تعوزها الأدلة المقنعة.

فإذا كانت أساليب الانتاج ـــ كما تقول النظرية ـــ هي التي تحدد طبيعة النظام السياسي القائم والمعتقدات الدينية السائدة وإذا

كان الدين مجرد انعكاس للظرف الاقتصادي الذي يعيش فيه الناس فلماذا نجد مائة دين ودين كلها متجاورة وتستظل في ظل ظروف اقتصادية واحدة. فمثلا نجد أن الإسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الأديان الأخرى تسيطر على عقول ناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية ونفس النوع من أساليب الانتاج مئات السنين وهذه القوى الاقتصادية أخفقت في صهر هذه الطوائف في كتلة دينية واحدة وفي دين واحد أو حتى في نظام سياسي واحد. ولماذا نجد مثلا المانيا البلد الواحد منقسمة إلى معسكرين شرقي وغربي؟ المانيا الشرقية صارت اشتراكية بمجرد استيلاء روسيا عليها والمانيا الغربية ظلت رأسمالية مع أنهما في الأساس بلد واحد ويخضعون لنفس الأوضاع والظروف الاقتصادية. ثم إن دول أوروبا الشرقية (المجر، بولندا، تشيكوسلفاكيا، يوغسلافيا، بلغاريا وغيرها) حين تطورت من الرأسمالية إلى الاشتراكية هل تطورت بتطور أدوات الانتاج أم باستيلاء روسيا الشيوعية عليها؟ ثم في روسيا هل تطورت أدوات الانتاج أولا ثم تطورت العلاقات الاجتماعية تبعاً لذلك والنظام القائم فيها أم أن الحزب الشيوعي استولى على السلطة فغير الانتاج وأسلوب الانتاج وعلاقات الانتاج ؟؟.

الحقيقة أن مفهوم التفسير المادي للتاريخ لا يخلو من الغلو في تغليبه للعامل الاقتصادي ونحن من موقف الا قتصاد الإسلامي لا

نقبل به لأنه بالاضافة إلى غلوه فهو لا يجيب على كثير من الأسئلة التي طرحت حوله ولأنه في النهاية وبالاضافة لذلك ينكر الدين جملة وتفصيلا ومصداقية أساليب توصيل الدين ومن أهمها **الوحي والكتب السماوية**[1].

---

(١) ملحوظة: القارئ الراغب في التوسّع في الموضوع ننصحه بكتاب قيم صدر من جامعة أم القرى بعنوان « موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ » بقلم أحمد العوايشة جزاه الله كل خير.

الموقف الإسلامي من النظرية الماركسية الخماسية التاريخية

خلاصة الخماسية التاريخية:

خلاصة الخماسية التاريخية عند ماركس أن المجتمعات البشرية قد سجلت خمسة أطوار أو مراحل: المشاعية البدائية والرق والاقطاع والرأسمالية والشيوعية. هذه المراحل هي حتمية الوقوع .. أي أن التطور من المشاعية إلى البدائية مروراً بمرحلة الرق والاقطاع والرأسمالية وصولاً إلى الشيوعية. هذا التطور أو الانتقال من طور إلى طور هو أمر حتمي ومربوط بعوامل اقتصادية خارجة عن إرادة الإنسان إذن فحسب الخماسية التاريخية ــ كمفهوم ايديولوجي ــ كل المجتمعات البشرية مرشحة للتحول نحو الشيوعية في يوم من الأيام.

يتساءل الأخ أحمد العوايشة ــ ونحن نضم صوتنا إليه ــ في كتابه القيم الذي أشرنا إليه: ما هو الدليل العلمي على هذه الحتميات؟ (حتمية التطور عبر الأشكال الاجتماعية الخمسة المذكورة)[٣٠٣]، وقد لا حظنا أن تاريخ الإسلام لم يمر بمرحلة الرق

---

(٣٠٣) موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ لأحمد العوايشة.

والاقطاع .

تدخل اليهود في الصناعة الرأسمالية :

ثم إن الرأسمالية لم تكن حتما ستصل إلى ما وصلت إليه من سوء لولا تدخل اليهود في الصناعة الرأسمالية واحتكارها بواسطة القروض الربوية ... ثم على فرض تفسير أطوار البشرية ـــ كما فسرها أصحاب التفسير المادي للتاريخ ـــ كلها صحيحة ـــ وهي ليست بصحيحة ـــ فكيف تكون هذه الأطوار مستقلة عن إرادة الانسان؟ أليس الانسان هو الذي امتلك الأرض وأدوات الانتاج بعد إذ لم يكن يملك من قبل؟ هل الأرض هي التي فرضت عليه ملك نفسها؟ أم هو الذي امتلكها برغبته في الامتلاك؟ ومن الذي اخترع الآلة؟ أليس هو الانسان؟ ولماذا اخترعها بإرادته؟ أم فرضت هي نفسها عليه فرضا وأمسكته من خناقه وهزته وقالت له اخترعني؟ أوليست رغبته هو في تحسين انتاجه ـــ الرغبة الفطرية الكامنة فيه ـــ هي التي جعلته يتعلم ويبحث وينقب حتى اخترع الآلة. فعلى فرض أن هذه الآلة هي التي تكتب تاريخ البشرية أليس فيها إرادة الانسان؟ فكيف تكون الأطوار (الخمسة) إذن خارجة عن إرادة الانسان ومستقلة عنها؟ .

المشاعية البدائية :

ولنبدأ بالأطوار الخمسة طوراً بعد آخر ونسأل حول **المشاعية البدائية**: ما هو الدليل العلمي على أن البشرية مرت بالفعل بمرحلة

المشاعية البدائية؟ ثم كيف يمكن الحصول على هذا الدليل العلمي ما دمنا نتكلم عن الانسانية قبل عصور التاريخ؟ ثم ما هو الدليل العلمي على أن نزعة التملك الخاص ليست فطرية وأن الملكية الخاصة لم تكن موجودة في طور المشاعية البدائية؟ خاصة وأن انجلز وهو من المصادر الهامة للنظرية الماركسية يقول في كتابه الشهير حول الأسرة: **(فما أكثر تناقض الروايات التي في حوزتنا حتى عن القبائل البشرية المتوحشة وما أحوجها إلى الفحص الدقيق والغربلة)**[٣٠٤].

تفنيد المشاعية البدائية:

لذلك نستطيع أن نقول بأن النظرية الماركسية لم تطرح دليلا علميا واحداً يثبت طور المشاعية البدائية وذلك لعدم توفر المعلومات التاريخية الدقيقة التي تجزم بذلك كما أكد ذلك انجلز نفسه في النص المشار إليه أعلاه.

طور الرق:

ويعقب طور المشاعية البدائية طور آخر وهو طور **الرق** الذي ظهر مع بروز الملكية الخاصة نتيجة لتطور القوى المنتجة. مصادر الرق كانت الحروب بين القبائل حيث كانت القبيلة المنتصرة تستعبد أفراد القبيلة المهزومة، ثم وبعد تطور الزراعة توسعت دائرة الرق

---

(٣٠٤) حول الأسرة لأنجلز ص ٥٠.

وأصبحت تشمل المدينين نتيجة لظهور الإقراض الربوي وعجز المدين عن السداد. وقد يكون هذا ينطبق على تاريخ أوروبا والمجتمعات الأوربية ولكنه حتما لا ينطبق على تاريخ الإسلام . فمن يدرس تاريخ الإسلام يلحظ أنه ألغى هذه « الحتمية » التي تسطرها النظرية الماركسية. لقد كان الرق قبل الإسلام مشروعاً بين الأمم، ومشروعاً في القوانين الوضعية (القانون الروماني) ومشروعاً حتى في بعض العقائد الدينية.

أنواع الرق:

وكان الرق عدة أنواع: رق الأسر في الحرب، ورق السبي في غزوات القبائل، ورق البيع والشراء، وكانت اليهودية تبيحه، وظهرت النصرانية وهو مباح فلم تحرمه. أما الإسلام فقد حظر جميع أنواع الرق وجففها ولم يبق للرق إلا منبع واحد وهو رق الحرب الشرعية وذلك معاملة بالمثل لأنه ليس من مصلحة المسلمين أن يسترق أبناؤهم دون أن يردوا على أعدائهم بالمثل، لذلك نستطيع أن نقول بأن الإسلام ــ عبر تاريخه ــ لم يمر بطور الرق ــ كما هو موصوف في النظرية الماركسية ــ بل سبق العالم في مرحلة ظهوره في اتخاذ موقف متقدم للغاية من هذه القضية بغض النظر عن « الحتميات الاقتصادية » التي كانت سائدة آنذاك في العالم أجمع ولماذا لم ينعكس بذلك الوضع الاقتصادي العالمي على موقف الإسلام من الرق ؟.

الموقف الإسلامي من النظرية الماركسية
الاقطاع

الاقطاع:

الاقطاع من حيث هو مرحلة يقع ضمن خماسية ماركس التاريخية. ويبدو أن ماركس قد ركز دراسته على المجتمع الأوروبي وخرج بنتائج حاول تعميمها على باقي المجتمعات البشرية وهنا الثغرة الرئيسية في معالجته لمشكلة الاقطاع.

لقد قام ماركس بتشخيص دقيق للاقطاع الذي كان سائداً في أوروبا. ويؤكد ماركس ــ ومعه انجلز ــ أن الاقطاعيين كانوا يفرضون على الفلاحين ضرائب وأحوال غير معقولة ولا مقبولة وأن هذا الظلم اللاحق بالفلاحين هو نتيجة طبيعية للملكية الفردية التي تنامت في تلك المرحلة.

أقسام المجتمع الاقطاعي في أوروبا:

لقد كان المجتمع الاقطاعي الأوروبي ينقسم إلى ثلاث طبقات: **مالك الأرض، رجال الدين، الفلاحون.** أما ملاك الأراضي والاقطاعيات فقد كانوا يريدون تحقيق أكبر قدر ممكن من المصلحة

الذاتية من خلال تملكهم لمساحات شاسعة من الأراضي. وكانوا يتصرفون بقسوة وشدة مع الفلاحين. أما رجال الدين ــ ويقصد بهم ماركس رجال الكنيسة من الأساقفة ــ فقد كانوا يخضعون الكنيسة والطقوس وتوظيف ذلك من أجل مصالحهم ومصالح الاقطاعيين. ويؤكد ماركس بأن هذه الطبقة كانت دائماً حليفة لطبقة ملاك الأرض.

الضغط الحاصل للفلاحين:

وأما الفلاحون فقد كانوا ضحية كبيرة يتحملون ظلم الملاك ورجال الكنيسة ويتبعونهم تبعية دائمة ويتحملون منهم ظلماً مخيفاً. ويعدد **انجلز في « حرب الفلاحين »** الأحوال السيئة التي كان يتحملها الفلاحون ومنها:

* يدفع الفلاح ثلاث ضرائب نقدية في السنة.
* يعمل سخرة معظم أيام السنة.
* يفتدي سيده (مالك الأرض) إذا أسر.
* ينضم إلى فيالق المالك إذا نشبت الحرب.
* يقدم الهدايا لابن المالك إذا رقي لمرتبة الفارس.
* لا يبيع سلعة إلا بعد بيع سلعة المالك بأسبوعين.
* يشتري بعض بضائع سيده وجوباً.
* يدفع ضريبة للمالك إذا تزوج الفلاح أو أحد أبنائه من خارج الاقطاعية.

* حق الليلة الأولى وهي أن يقضي السيد مع عروس رقيقه الليلة الأولى[٣٠٥].

تفنيد الاقطاع:

هذه هي الصورة القاتمة التي كان يرزخ تحتها الفلاحون في أوروبا. وهي صورة يؤكدها لا ماركس أو إنجلز فقط بل كثير من المؤرخين الأوربيين. وليس خلافنا مع ماركس منصباً على حيثيات الصورة القاتمة للاقطاع الأوروبي، بل خلافنا معه هو حول ما إذا تكررت هذه الصورة في كل المجتمعات البشرية — كما يؤكد — من حيث هي حتمية تاريخية، ويهمنا في الأساس طبعا المجتمع الذي أنشأه الإسلام في الجزيرة العربية.

لقد وضع الإسلام الكثير من القواعد والأحكام التي تضبط العلاقة فيما بين ملاك الأراضي والعاملين عليها من الفلاحين، والذي يتفحص الفقه المعني بذلك وخاصة فقه المزارعة أو العقود يجد أن الإسلام قد حقق توازناً مطلوباً في هذه المسألة. فالسخرة التي كانت موجودة في أوروبا لا مكان لها في الإسلام فلا سخرة ولا خدمة بلا ثمن في الإسلام والفلاح حر في اختيار الأرض التي يعمل عليها ومالك الأرض الذي يتعامل معه. فالقضية قضية صفقة عمل فإن كانت صفقة رابحة قبل بها وإن كانت خاسرة رفضها وليس للمالك أن يلزمه بشيء غير ذلك. أما أن يجبر الفلاح على افتداء صاحب الأرض إذا

أسر كما حدث في أوروبا فذلك لا يقره الإسلام وذلك لانتفاء التبعية بينهما في ضوء الشرع الإسلام . ثم إن فداء الأسرى تقوم به الدولة في الإسلام فإن عجز بيت مال المسلمين عن ذلك يجمع من الأغنياء إذا لم يستطع الأسير أن يفتدي نفسه بماله الخاص. أما الضرائب الثقيلة التي كان يتحملها الفلاحون في أوروبا فلم يفرض الإسلام هذه الضرائب في المجتمع الذي أقامه بل إن الفلاحين أو الأكارين ــ كما كانوا يسمون في تاريخ الإسلام ــ كانوا يتلقون مساعدات اجتماعية من خلال تشريعات الزكوات والصدقات، بل إن الرقيق في الإسلام كان يعطى من مال الزكاة لمساعدتهم على الانفصال والعتق عن طريق المكاتبة. أما أن يدفع الفلاح لصاحب الأرض جزءاً من المحصول أو الماشية زيادة على نصيبه فهذا أمر لا يقره الإسلام ولم يشرع به. أما بيع السلع فللجميع في الإسلام الحق في البيع في أي وقت شريطة أن لا يحصل الاحتكار أو أي نمط من أنماط الحبس للسلع. أما حق الليلة الأولى لصاحب الأرض مع عروس الفلاح فهذا يعتبره الإسلام زنى ينبغي أن يقام الحد على مرتكبه والحدود في الإسلام لا تجوز فيها الشفاعة ولا تفرق بين شريف وفقير.

الطرح الماركسي لا ينطبق على المجتمع الإسلامي:

خلاصة ما نريد أن نذهب إليه ــ على ضوء ما ذكر آنفاً ــ أننا كمسلمين ضد الظلم الذي يلحق بالفلاحين، كما كان يحدث

في مرحلة الاقطاع الأوروبي، غير أننا لا نرى هذا في تاريخ الإسلام أي أن المرحلة الاقطاعية **بالصورة التي تم تشخيصها ماركسياً** لم تمر بها المجتمعات الإسلامية. ونستنتج أن حتمية هذه المرحلة ـــ من حيث هي طرح ماركسي ـــ لا تنطبق على تاريخ الإسلام أو المجتمع الإسلامي والله أعلم.

شرعية السلطة السياسية

متى تتحقق

شروط السلطة السياسية:

كي تكون السلطة السياسية التي تحكم الجماعة المسلمة شرعية لها حق الطاعة على الأفراد ينبغي أن يتوافر لها أمران:

١ ــ إقامتها لشريعة الله.

٢ ــ رضى عموم المسلمين عنها.

أولا: تنفيذ أحكام الشريعة:

الأمر الأول: يقتضى من السلطة السياسية تنفيذ أحكام الشريعة وإعطاؤها صفة الالزام. فالدولة في الإسلام هي في الأساس وسيلة وأداة لتنفيذ أحكام الشريعة في حياة الجماعة التي تدخل في نطاق سيادة الدولة. والتشريع الإسلامي يشتمل على كثير من الأحكام التي تمس حياة عموم الناس بشكل مباشر كأحكام الأسرة وما يدور في مدارها من زواج وطلاق ونفقات وحقوق ومواريث. كذلك يشتمل التشريع على الإسلامي على كثير من الأحكام المتعلقة بالمعاملات بين الناس مثل التجارة والبيوع وسائر المعاملات

المالية، كذلك كافة العبادات المالية والبدنية مثل الزكاة والصيام وغيرها، كل هذه الأحكام لا بد أن تتحول إلى حركة اجتماعية يتحرك ضمنها المجتمع المسلم وفق إطاراتها الشرعية، والسلطة السياسية الإسلامية هي المكلفة بإقامة كل هذه الأحكام وتنفيذها وحراسة هذه الحركة الاجتماعية الشرعية وتنميتها.

وإذا كانت حكومات اليوم في عالمنا المعاصر هذا تسهر على تنفيذ وحماية قوانينها الوضعية، فإن حكومة الإسلام تتحمل مهمة السهر على تنفيذ وحماية الأحكام الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وتفقد السلطة السياسية شرعيتها إذا زاغت عن هذا الطريق وبالتالي لا تكون طاعتها واجبة على المسلمين في حال انحرافها عن تنفيذ الأحكام الشرعية بل إن الإمام ابن تيمية يوجب جهاد وقتال من يفعل ذلك إذ يقول رحمه الله: (وأيضا طائفة ممتنعة انتسبت إلى الإسلام وامتنعت عن بعض شرائعه الظاهرة المتواترة، فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين حتى يكون الدين كله لله)[٣٠٦].

رضى عموم المسلمين عن السلطة السياسية:

الأمر الثاني: الذي ينبغي أن يتوافر للسلطة السياسية رضى عموم المسلمين عنها. وهذه قضية جديرة بالتأكيد فالقيادة السياسية في الإسلام تستمد شرعيتها من بيعة الناس لها وهي بيعة صريحة

(٣٠٦) الفتاوى لابن تيمية ج ٢٨ ص ٣٠٨.

وواضحة لا إكراه فيها ولا إجبار. والقائد السياسي في الإسلام هو واحد من الناس وليس مكانه فوق الناس، والحرام حرام عليه وعلى الناس والحلال حلال عليه وعلى الناس حتى أن الله عز وجل يقول على لسان رسوله: ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ﴾[٣٠٧] وأبو بكر يقول: (قد وليت عليكم ولست بخيركم)[٣٠٨] كما أن عمر يقول لأبي موسى الأشعري : (إنما أنت واحد من الناس غير أنك أثقلهم حملا)[٣٠٩].

والرضى العام من جمهور المسلمين إزاء القيادة السياسية التي تقودهم أصل هام من أصول السياسة الاسلامية وما أحكام الشورى والبيعة إلا سبل للتحقق من ذلك. والرضى أساس كبير من أسس التعامل السياسي والتجاري والعبادي في مجتمع الاسلام.

• ﴿ لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾[٣١٠].

حتى إمامة الصلاة لاتصح إن كرهها المأمومون:

« ثلاثة لاترتفع صلاتهم فوقهم شبراً.. منهم.. من أم الناس وهم له كارهون »[٣١١].

---

(٣٠٧) ـــ سورة الكهف الآية ١١٠.

(٣٠٨) ـــ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٦٩ ط الرابعة سنة ١٩٦٩ م.

(٣٠٩) ـــ سيرة عمر لابن الجوزي.

(٣١٠) ـــ سورة النساء الآية ٢٩.

(٣١١) ـــ روي بعدة ألفاظ ففي سنن أبي داود (ثلاثة لايقبل الله منهم صلاة من تقدم قوماً وهم له كارهون... الحديث) ج ١ ص ٣٩٧ حديث ٥٩٣، وابن ماجه ج ١

حرص الرسول على الرضى قبل إقامة الدولة في المدينة:

هذا ولقد حرص المصطفى ﷺ على الرضى قبل أن يلي أمور الدولة في المدينة فكانت بيعة العقبة الأولى ثم الثانية. ثم إن المصطفى ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى تاركاً أمر القيادة واختيارها عن رضى للمسلمين ولو نص الرسول على أحد لما كان خلاف يوم السقيفة شغلهم عن دفن النبي. وهاهو عمر يقول: « من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنه لابيعة له ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا »(٣١٢).

وأشار إليه ابن تيمية في منهاج السنة. والقيادة السياسية (الامامة العامة) عند الفقهاء « عقدة » بين طرفين أي الامام والأمة وأساس العقود في الاسلام ـــ بل في كل القوانين والشرائع ـــ الرضى.

ص ٣١١ حديث ٩٧٠ ط عيسى الحلبي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

وأما لفظ « ثلاثة لاترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أم قوماً وهم له كارهون » ضعيف الجامع ج ٣ ص ٦٨ حديث ٢٥٩٥٢ قال الألباني: ضعيف، وانظر غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ص ٥٤، حديث ٢٤٨ تحقيق الألباني نشر المكتب الاسلامي وأما لفظ (ثلاثة لاتجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط وإمام قوم له كارهون) صحيح الجامع ج ٣ ص ٧٠ ح ٣٠٥٢. قال الألباني: حسن. ورواه الترمذي ج ٢ ص ١٩٣ حديث ٣٦٠ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ويقول الشيخ أحمد شاكر: بل هو صحيح... وفي التهذيب « حسن الترمذي بعض أحاديثه وصحح بعضها».

(٣١٢) ـــ فتح الباري ج ١٥ ص ١٦٢ وهو جزء من حديث طويل جداً.

هكذا إذن يتبين لنا أن شرعية السلطة السياسية في الاسلام لاتحقق إلا إذا توفر لها أمران، أولهما إقامة شريعة الله وثانيهما رضى عموم المسلمين عنها والله أعلم.

ولاية التغلب والاستيلاء

قررنا في السابق بأن رضى عموم المسلمين وقبولهم بالسلطة السياسية ركن من أركان شرعيتها يقف جنباً إلى جنب مع الركن الأول وهو إقامة وتنفيذ الشريعة الاسلامية وأحكامها على صعيد الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .

حكم القفز على السلطة والاستيلاء عليها :

ومصدر سلطة الامام في الاسلام هو مبايعة الجمهور له ورضاهم به والأمة هي الحافظة للشرع إي أنها مصدر السلطات . إذا كان الأمر كذلك فما موقفنا من ولاية التغلب والاستيلاء أي القفز على السلطة السياسية والاستيلاء عليها بغير رضى عموم المسلمين ولايتبع ذلك بيعة . مهم أن نعرف أن ولاية التغلب ليست أصلاً وأنها لاتجوز ذلك لأنها خروج على قاعدة التراضي . يقول د .

علي محمد جريشة في هذا الموضوع : « لذا حبذ الفقهاء التخلص منها (أي ولاية التغلب) كلما كان ممكناً وإذا جازت فانما تجوز كما يجوز أكل الميتة ولحم الخنزير إذا ألحت الضرورة في ذلك . والضرورات تبيح المحظورات لكن الضرورة تقدر بقدرها وتقف عند حدها فكلما

أمكن إنهاؤها كان بقاؤها إثماً »[٣١٣].

لقد أشار الأمام محمد رشيد رضا إلى وجوب السعي لازالة ولاية التغلب عند الامكان وعدم جواز توطين النفس على دوامها ولا أن تكون القيادة السياسية للمسلمين كالكرة بين المتغلبين يتقاذفونها ويتلقونها[٣١٤].

لابد للولاية من رضا المسلمين فيها:

والأصل هو أن ولاية المسلمين وقيادتهم لاتصح بالتغلب والاستيلاء بل تصح بالرضى والقبول بطريق البيعة الصريحة. ثم ان المتفحص للخلافة الراشدة من هذه الزاوية يلاحظ اهتمام الخلفاء الراشدين في تأكيد أهمية البيعة العامة في المسجد ويروي الطبري أن علياً كرم الله وجهه قال: « إن بيعتي لاتكون خفياً ولاتكون إلا عن رضا المسلمين »[٣١٥] يتضح من كل ذلك ومن وقائع أخرى كثيرة في عهد الخلافة الراشدة أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يرون أن الخلافة وولاية المسلمين لابد من الفصل فيها برضا المسلمين ومشورتهم أما اغتصاب الحكم بالقوة فلم يكن لديهم « خلافة » بل « ملكاً » ولذلك نجد « أبا موسى الأشعري » يحدد لنا الفرق بين الخلافة والملك تحديداً واضحاً إذ يقول: « إن الامارة ماأؤتمر فيها وان الملك ماغلب عليه بالسيف »[٣١٦].

---

(٣١٣) — المشروعية الاسلامية العليا للدكتور علي محمد جريشة ص ٢٥٤.

(٣١٤) — الامامة الكبرى ص ١٣٧.

(٣١٥) — الطبري ج ٣ ص ٤٥٠.

(٣١٦) — طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١١٣.

فقه تنظيم الاستهلاك في الاسلام

قال عمر: أكلما أشتهيتم أشتريتم؟

موقف الاسلام من « الاستهلاك » كعملية لازمة في المجتمع الاسلامي ينسجم تماماً مع موقفه الاقتصادي العام الذي يتوخى تحقيق المصلحة العليا للجماعة الاسلامية. فللاسلام مفهومه الخاص « للسلعة » ويضع الأطر العامة لاستهلاكها والمبادىء الاخلاقية التي تحتضن تلك الأطر. ولذا كان الحديث في القرآن الكريم عن **التبذير والمبذرين والاسراف والمسرفين والتقتير والمقترين**. ولذا أكد القرآن على حرمة التبذير والاسراف وأكد بأن المبذرين اخوان الشياطين وبأن الله لايحب المسرفين. هذه إشارات قرآنية نستطيع أن نعتبرها من معالم الموقف الاسلامي من « الاستهلاك » من حيث كونه عملية لازمة.

مفهوم السلعة في الاسلام:

يحدد لنا الاسلام مفهومة « للسلعة » المتداولة بين الناس في السوق تحديداً دقيقاً فالسلعة نعمة من نعم الله على العباد والمواد الاستهلاكية هي: **طيبات ورزق**. وينبغي إذن من خلال التسمية أن

ينظر المسلم إلى السلعة بهذا الاطار الاخلاقي الذي يؤكد على النقاوة والطهارة والاناقة. وأما ماهو غير صالح للاستهلاك البشري ويحقق ضرراً فهو من: **الخبائث** ولايجوز تداوله في السوق إذن السلعة الاستهلاكية ــ في نظر الاسلام ــ هي المادة النافعة الخيرة التي لايؤدي استهلاكها إلى ضرر وحتى هذه السلعة حدد الاسلام كيفيات استهلاكها والحدود التي ينبغي أن نقف عندها في استهلاك الطيبات. هذا التعريف للسلعة وهذا المفهوم لها لاشك يؤدي إلى عدة اعتبارات اقتصادية هامة منها تحديث أطر ومبادىء ومعادلات الانتاج أي انتاج السلع.

طبعاً مفهوم الاسلام للسلعة يتضارب مع مفهوم السوق الرأسمالي للسلعة والأخير يؤكد بأن أي شيء يمكن أن يباع وله منفعه وربح فهو إذن سلعة. لذلك نجد أن عملية الانتاج في السوق الرأسمالي عملية غير منضبطة الهدف منها الربح بل والسريع منه وذلك من خلال التسويق حتى للخبائث أي التي لاتحقق مصلحة لا فردية ولا عامة.

موقف الاسلام من الاستهلاك:

على هذا الاساس نفهم موقف القرآن الكريم ورسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين في قضية الاستهلاك ومن هذا المدخل نستوعب فقه الاستهلاك في الاسلام.

روى الطبراني والبيهقي أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى

رجلاً عظيم البطن فأشار بأصبعه إلى البطن وقال: « لو كان مافي هذا في غير هذا المكان لكان خيراً لك »[٣١٧].

وكان عمر رضي الله عنه يقول: « والله ما نعجز عن لذات الدنيا أن نأمر بصغار المعزى فتسمط لنا وأن نأمر بلبات البر — أي القمح — فيخبز لنا وبالزبيب فينبذ لنا فنأكل هذا ونشرب هذا ولكنا نريد أن نستبقي طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول في قوم فعلوا مثل ذلك: ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾[٣١٨].

وكان عمر وهو خليفة يمر بسوق اللحم فإذا رأى رجلاً قد اشترى بالأمس ويريد أن يشتري اليوم زجره ورده وكان يقول: « اتقوا هذه المجازر فان لها ضراوة كضراوة الخمر »[٣١٩] ومن فقهه في الاستهلاك أنه رضي الله عنه لقي في السوق جابر بن عبد الله ومعه لحم اشتراه فقال: « ماهذا ياجابر؟ قال: لحم اشتهاه أهلي فاشتريته فقال: أكلما اشتهيتم اشتريتم؟ أكلما اشتهيتم اشتريتم؟ أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه؟ وأين تذهب عنكم الآية: ﴿ أذهبتم

---

(٣١٧) — مسند أحمد ٣ / ٤٧١ و ٤ / ٣٣٩ والطبراني في الكبير ج ٢ ص ٣١٩.
قال في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح غير أبي اسرائيل الجشمي وهو ثقة انظر ج ٥ ص ٣١ و ج ٨ ص ٢٢٧.

(٣١٨) — الاية من سورة الأحقاف آية ٢٠ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي.

(٣١٩) — سيرة عمر لابن الجوزي.

طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها؟ ﴾ »[٣٢٠] .

نخلص إلى القول بأن ثمة فقه لتنظيم الاستهلاك وترشيده ولله در عمر فسؤاله لجابر بن عبد الله: أكلما اشتهيتم اشتريتم؟ وهو سؤال استنكاري يضع قاعدة لتنظيم الاستهلاك لو طبقناها في حياتنا اليوم لعالجنا جزءاً هاماً من مشكلة الغلاء والذي في الأساس مانشأ إلا من خلال الشهوة البهيمية في الاستهلاك لدى الانسان المعاصر.

---

(٣٢٠) ـ سورة الأحقاف الآية ٢٠.

الرسول ﷺ وأمن الجماعة المسلمة

حرص الرسول على عدم تغلغل الكفار والمنافقين في صفوف الجماعة المسلمة

المتأمل في سيرة المصطفى ﷺ يلحظ اهتمامه الكبير بأمن الجماعة الاسلامية، وتحقيق أمن الجماعات ليس بالأمر الهين. كان ﷺ حريصاً ألا يتغلغل الكفار والمنافقون والمأجورون داخل صفوف الجماعة الاسلامية الأولى لما في ذلك من أثر كبير على وحدة الصف، وفاعلية الصمود وقوة التحرك.

بل أنه ﷺ كان حريصاً على أن يتغلغل المسلمون في صفوف الكفار والمنافقين والمأجورين لتخذيلهم وتفريقهم وتشتيتهم وإثارة حتى الفتن فيما بينهم لصالح التحرك الاسلامي. لذا نجد أن الرسول ﷺ كان يرسل « العيون » للتجسس عليهم ويدفع الأموال لتفريق صفوفهم ولايتردد في خدعتهم

وقصة نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني الذي أسلم يوم الخندق مشهورة[٣٢١]. لقد أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله

---

(٣٢١) — سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩.

إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا [أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا] ما استطعت فان الحرب خدعة. وبقية القصة معروفة، بل لقد لجأ الرسول ﷺ إلى استخدام المال لايجاد الشقاق في صفوف العدو وتمزيق وحدته، فعرض على عيينة بن حصن وهو رئيس غطفان يومئذ ثلث تمر نخل المدينة على أن يخذل الأحزاب وينصرف عن المدينة بمن معه[٣٢٢].

ومن جملة الظواهر في المسلك الأمني للرسول ﷺ اهتمامه بالمعلومات الدقيقة ذلك لأن المعلومات الدقيقة هي زاد وغذاء القيادة اليقظة. فلقد بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس يتجسس له ليطلع على حقيقة خبر خالد بن سفيان زعيم بني لحيان من هذيل الذي أقام بنخله أو عرفه يجمع الناس بعد موقعه أحد ليغزو الرسول ﷺ[٣٢٣].

وبعد دبيب الفرقة بين المشركين في وقعة الخندق أو الأحزاب أرسل الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان لينظر مافعل القوم ليلاً[٣٢٤].

وقبيل موقعة بدر أرسل النبي ﷺ بسبس بن عمرو الجهني وعدي بن الرعباء إلى بدر يتجسسان أخبار عير أبي سفيان[٣٢٥].

---

(٣٢٢) ــ زاد المعاد ج ٢ ص ١١٨.

(٣٢٣) ــ فتح الباري ج ٧ ص ٢٢٦.

(٣٢٤) ــ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣١.

(٣٢٥) ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٨٥.

ويوم حنين بعث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في صفوف العدو ويقيم فيهم حتى يعلم عملهم ثم يأتيه بخبرهم(٣٢٦).

كل هذه الوقائع ونحوها كثير تدلل على الحس الأمني لدى الرسول ﷺ كما أنها تدلل على مشروعية الجاسوسية ولو بأجر ولو كان الجاسوس غير مسلم من رعايا العدو إذا كان يوثق به قبل العمل معنا(٣٢٧).

قال ابن القيم في زاد المعاد: كان النبي ﷺ يبعث العيون يأتون بخبر عدوه ويطلع الطلائع ويبيت الحرس(٣٢٨).

---

(٣٢٦) ــ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٣٩.

(٣٢٧) ــ مغني المحتاج ج ٤ ص ٢٤٠ والمهذب ج ٢ ص ٢٣٠.

(٣٢٨) ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٦٤ ط المصرية، وانظر صحيح مسلم حديث (١٩٠١) ومسند أبي داود حديث (٢٥٠١) و ٢٦١٨.

المراجع

أولاً: القرآن الكريم وأشهر كتب التفسير:

١ ــ القرآن الكريم الناشر: دار المصحف، القاهرة سنة ١٣٩١ هـ.

كتب التفسير بالمأثور:

٢ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: بيروت.
٣ ــ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ط: بيروت.
٤ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ط: دار الفكر.
٥ ــ فتح القدير للامام محمد بن علي الشوكاني ط: دار الفكر.

كتب التفسير بالرأي:

٦ ــ تفسير الكشاف للزمخشري.
٧ ــ تفسير النسفي.

كتب التفسير الفقهي:

٨ ــ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط الثالثة، القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

٩ ــ أحكام القرآن للجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، نشر دار المصحف. القاهرة.

كتب التفسير الحديث:

١٠ ــ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا.

١١ ــ في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ط: الأولى.

ثالثاً: العقيدة

١٢ ــ تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، نشر مكتبة الرياض الحديثة.

ثالثاً: الحديث النبوي

أولاً: كتب التخريجات:

١٣ ــ المعجم الفهرس لألفاظ الحديث ونسنك وآخرون ط: مطبعة بريد في مدينة برلين سنة ١٩٤٣ م.

١٤ ــ مفتاح كنوز السنة لمحمد فؤاد عبد الباقي ط: لاهور ــ باكستان.

٥ ــ مفتاح الصحيحين للتوقادي ط: دار الكتب العلمية.

١٦ ــ كشف الخفا للعجلوني، نشر مكتبة التراث الاسلامي.

١٧ ــ المقاصد الحسنة للسخاوي، نشر مكتبة المثنى ــ بغداد سنة ١٩٥٦ م.

١٨ ــ مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للامام محمد بن عبد الباقي الزرقاني ــ تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ ط: الأولى، الرياض سنة ١٩٨١ م.

ثانياً: كتب الحديث:

١٩ ــ الموطأ للامام مالك ط: عيسى البابي الحلبي.

٢٠ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط: مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٩ م.

٢١ ــ إرشاد الساري في شرح البخاري للقسطلاني.

٢٢ ــ صحيح الامام البخاري ط: الشعب.

٢٣ ــ صحيح الامام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط: الأولى سنة ١٩٥٥ م المصورة.

٢٤ ــ سنن أبي داود للامام الحافظ أبي داود السجستاني ط: الأولى سنة ١٩٧١ م.

٢٥ ــ سنن الترمذي للامام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي ط: عيسى البابي الحلبي.

٢٦ ــ سنن النسائي للامام النسائي ط: مصطفى البابي الحلبي.

٢٧ ــ سنن ابن ماجه للامام ابن ماجه القزويني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط: عيسى الحلبي.

٢٨ ــ سنن البيهقي للامام البيهقي ط: دار المعرفة.

٢٩ ــ المسند للامام أحمد الشيباني نشر المكتب الاسلامي.

٣٠ ــ المعجم الكبير للطبراني، تحقيق عبد المجيد السلفي ط: مطبعة الأمة بغداد.
٣١ ــ المعجم الصغير للطبراني ط: الثانية ــ المدينة المنورة سنة ١٩٦٨ م.
٣٢ ــ المعجم الصغير للطبراني ط: الهندية.
٣٣ ــ المستدرك للامام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ط: بيروت، الناشر: دار الكتاب العربي.
٣٤ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للامام الهيثمي ط: دار الكتاب العربي.
٣٥ ــ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين على ابن أبي بكر الهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ط: المطبعة السلفية.
٣٦ ــ كنز العمال.
٣٧ ــ نيل الأوطار للامام الشوكاني.
٣٨ ــ الترغيب والترهيب للامام المنذري ط: الثالثة، دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٦٨ م.
٣٩ ــ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.
٤٠ ــ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري ــ تحقيق محمد الصباغ، مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧١ م.
٤١ ــ صحيح الجامع الصغير وزياداته للسيوطي، تحقيق محمد

ناصر الدين الألباني نشر المكتب الاسلامي سنة ١٩٧٢ م.
٤٢ ــ ضعيف الجامع الصغير وزياداته ــ محمد ناصر الدين الألباني ط: المكتب الاسلامي.
٤٣ ــ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني ط: الأولى سنة ١٩٧٩ م.
٤٤ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الاسلامي سنة ١٩٧٢ م.
٤٥ ــ سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني، ط: الأولى.
٤٦ ــ السنة لابن أبي عاصم تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط: الأولى سنة ١٩٨٠ م.
٤٧ ــ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام لمحمد ناصر الدين الألباني. نشر: المكتب الاسلامي.

رابعاً: الفقه وأصوله

٤٨ ــ الفتاوي الكبرى للامام الجليل ابن تيمية ط: الأولى.
٤٩ ــ المغني لابن قدامة المقدسي.
٥٠ ــ المحلى لابن حزم ط: مصر، الناشر مكتبة الجمهورية العربية سنة ١٩٦٩ م.
٥١ ــ فقه السنة لسيد سابق.

٥٢ ــ الأم للامام الشافعي .

خامساً : التاريخ والسيرة

٥٣ ــ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري .

٥٤ ــ البداية والنهاية لابن كثير .

٥٥ ــ مروج الذهب للمسعودي .

٥٦ ــ الكامل في التاريخ لابن الأثير .

٥٧ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد كاتب الواقدي ط : دار بيروت للطباعة والنشر .

٥٨ ــ سيرة النبي ﷺ لابن هشام ط : دار الفكر ــ بيروت .

٥٩ ــ نهاية الأرب للنويري .

٦٠ ــ زاد المعاد في سيرة خير العباد للإمام ابن القيم ط : المصرية .

٦١ ــ تاريخ الخلفاء للسيوطي ط : الرابعة سنة ١٩٦٩ م .

٦٢ ــ سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

٦٣ ــ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

٦٤ ــ مناقب الإمام للكردري .

٦٥ ــ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله .

٦٦ ــ موقف الإسلام من نظرية ماركس « التفسير المادي للتاريخ » لأحمد عوايشة .

سادساً : الأديان والفرق :

٦٧ ــ الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم .

٦٨ ــ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية .

سابعاً : السياسة الشرعية :

٦٩ ــ السياسة الشرعية لابن تيمية ط : بيروت ، دار الكتب ، سنة ١٩٦٦ م .

٧٠ ــ السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف .

٧١ ــ الأحكام السلطانية للماوردي ط : بيروت ، دار الكتب العلمية سنة ١٩٧٨ م .

٧٢ ــ الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ط : القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

٧٣ ــ الطرق الحكمية لابن القيم ط : المؤسسة العربية ، القاهرة ١٩٦١ م .

٧٤ ــ الطرق الحكمية لابن القيم تحقيق محمد حامد الفقي ط : مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٣ م .

٧٥ ــ الحسبة في الإسلام لابن تيمية ط : الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٧٦ ــ الإمامة الكبرى لمحمد رشيد رضا .

٧٧ ــ المشروعية الإسلامية العليا للدكتور علي محمد جريشة .

ثامناً: السياسة المعاصرة:

٧٨ ــ العلوم السياسية ريموند كيتيل ترجمة د . فاضل زكي مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٣ م.

٧٩ ــ الإسلام وأوضاعنا السياسية، القاهرة ١٩٥١، الشهيد عبد القادر عودة.

٨٠ ــ كارل ماركس ــ هنري لوفافر ترجمة محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٢ م.

٨١ ــ آنتي دوهرنغ، انجلز.

تاسعاً: الاقتصاد الإسلامي:

٨٢ ــ الأموال لأبي عبيد بن سلام ط : المصرية.

٨٣ ــ الخراج للقاضي أبو يوسف، ط : الخامسة، القاهرة سنة ١٣٩٦ هـ.

٨٤ ــ الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي د : محمد فاروق النبهان.

عاشراً: الاجتماع:

٨٥ ــ المقدمة لابن خلدون ط : القاهرة.

٨٦ ــ حول الأسرة لأنجلز.

٨٧ ــ حرب الفلاحين لأنجلز.



المحتوى

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحه

الموضوع	الصفحة